.

جامعة الأزهر الشريف
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين– بالقاهرة
قسم أصول الدين
شعبة التفسير وعلوم القرآن الكريم

الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

إعداد الدكتور

صبري منصور عبد العزيز صيام

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم المساعد (مدرس) بجامعة الأزهر الشريف وجامعة تبوك

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فإن نزول القرآن الكريم أجلُّ حدث وقع في تاريخ البشرية، فالقرآن هو المعجزة الباقية والبرهان الناطق بصدق النبي محمد ﷺ فيما بلغ عن ربه، وبصدق جميع النبيين من قبله، وهو المنهج الذي حقق للإنسانية متطلباتها المتوازنة بين الروحية والمادية على مدار العصور وتطوراتها.

فكانت معجزة القرآن الكريم أرفع قدراً، وأعظم أثرا من سائر المعجزات الحسية التي أوتيها النبي ﷺ، أو أوتيها أحدا من النبيين قبله، يقول ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعطِيَ مَا مِثْلُه آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَن أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، ح(٤٩٨١)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، ح(١٥٢).

(صحيح البخاري ٣٣٦/٣، ط: المكتبة السلفية– القاهرة، الأولى، سنة: ١٤٠٠هـ، صحيح مسلم صـ٩٠، ط: دار المغني– السعودية، الأولى، سنة: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م).

والحديث عن إعجاز القرآن الكريم واجب شرعي؛ إذ هو السبيل لإثبات ألوهيته، ودحض فرية بشريته، فهو عِلْمٌ عالي الشأن، رفيع القدر؛ لتعلقه بكتاب الله تعالى، ولأن ثمرته المرجوة هي مفتاح نجاة وسعادة العبد في الدنيا والآخرة.

وقد أدرك علماؤنا قدره، وعرفوا منزلته، ففاضت ألسنتهم وأقلامهم ببيان وجوه إعجازه، ولم يفتروا عنه منذ عصر التأليف والتدوين في العلوم الشرعية إلى يومنا هذا، مواكبين تطورات العصور، ومبرهنين على أن القرآن الكريم كتاب رب العالمين، الذي لم يسع أحدا إلا الإقرار بربانية مصدره، ومن ثَمَّ وجوب اتباعه، يقول العلامة محمود شاكر: «معرفة معنى (إعجاز القرآن)، وما هو، وكيف كان، أمر لا غنى عنه لمسلم ولا لدارس، وشأنه أعظم من أن يتكلم فيه أمرؤ بغير تثبت من معناه، وتمكن من تاريخه، وتتبع للآيات الدالة على حقيقته»(1).

وقد أردت –والله من وراء القصد– أن أدلو بدلوي في هذا الميدان الرحب الفسيح، أتنسم من نسماته، وأغترف من فيض معينه، كاشفا عن وجه لعله هو أبرز وجه –في وجهة نظري– من وجوه إعجازه، ألا وهو تأثير القرآن الكريم؛ إذ به قامت الحجة على جميع المكلفين، عربا كانوا أو عجما، ودُحضت فرية المستشرقين، وقد سميته: "**الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم**".

خطة البحث:

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث تقسيمه إلى مقدمة، وفصلين، وخاتمة:

المقدمة: دار الحديث فيها حول أهمية هذا البحث، وخطة البحث، وأهم الدراسات السابقة فيه.

الفصل الأول: مدخل إلى الإعجاز التأثيري.

---

(1) مقدمة الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي صـ٢٦،٢٧، ط: دار الفكر المعاصر، دار الفكر– بيروت، سنة: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإعجاز التأثيري.

المبحث الثاني: تعدد وجوه إعجاز القرآن الكريم.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: وجوه إعجاز القرآن الكريم

المطلب الثاني: أبرز وجوه إعجاز القرآن الكريم.

المطلب الثالث: مناط التأثير القرآني.

المبحث الثالث: الإعجاز التأثيري في دراسات العلماء.

الفصل الثاني: مظاهر التأثير القرآني.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر التأثير القرآني على الإنسان.

المبحث الثاني: مظاهر التأثير القرآني على الجن.

المبحث الثالث: مظاهر التأثير القرآني على الجمادات.

الخاتمة: جاءت مشتملة على ما يلي:

١- أهم نتائج البحث.

٢- ثبت بأسماء المصادر والمراجع.

٣- فهرس الموضوعات.

هذا، وقد توخيت في البحث جزالة الأسلوب، ودقة التعبير، ووضوح العبارة بما تفي بالمعنى من غير اختصار مخل، ولا إطناب ممل، وراعيت الأمانة

العلمية في النقل عن العلماء، فإن كانت العبارة بنصها، عزوتها إلى قائلها، ووضعتها بين قوسين هكذا « .... »، فإن تصرفت فيها بالحذف، وضعت بدل المحذوف نقطاً هكذا .... وإن أضفت كلمة -والغرض منها في الغالب التوضيح-، وضعتها بين قوسين هكذا (...)، وأشرت بالهامش في كل ذلك إلى أن في النص تصرفاً، مع ذكر الكتاب والجزء والصفحة. وإذا لم تكن العبارة بنصها، اقتصرت فقط على ذكر الكتاب بالهامش، مع كتابة الجزء والصفحة.

ولم أذكر ترجمة لأحد من الأعلام الذين وردت أسماؤهم في البحث، وذلك خشية إطالة البحث، ولشهرة أغلبهم، ولسهولة الوصول إلى ترجمة أحد الأعلام عبر وسائل البحث الالكترونية الحديثة.

فإذا كنت قد وفقت -وهو المأمول- فمن فضل الله -تعالى- عليَّ وتوفيقه، وإن كانت الأخرى مستعيذا بالله منها، فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

واللهَ أسأل أن يكتب لبحثي هذا القبولَ وخير المثوبة في الدنيا والآخر، كما أسأله -جل وعلا- أن يجزي عني والدَيَّ ومشايخي ومن له حق علي خير الجزاء.

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾[1].

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١) سورة هود، من الآية: ٨٨.

الدراسات السابقة

قد سبقني إلى هذه الدراسة ثلاث أبحاث، كلٌّ منها يحمل عنوان "**الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم**":

الأول: للأستاذ الدكتور/ زياد عواد أبو حماد، أستاذ التفسير وعلوم القرآن وعميد كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة العلوم الإسلامية العالمية بالأردن.

والبحث(١) جادٌّ في بابه قد أفدت منه كثيرا، حيث بين صاحبه موقف بعض العلماء من الإعجاز التأثير، وتعريف كل من الروح والنفس والقلب هادفا من وراء تعريفها أن أنسب تعريف لهذا الوجه من الإعجاز هو الإعجاز التأثيري، وليس الإعجاز الروحي أو النفسي أو القلبي ، ثم بين سبب عدم التأثر بالقرآنِ الكريم لكثيرٍ من النَّاس اليومَ.

إلا أن الباحث قد فاته أن يبين: ما الإعجاز التأثيري؟ وما مناطه؟ وما مظاهره؟ كذلك لم يقدم لنا دراسة تحليلية لموقف العلماء منه.

الثاني: للأستاذ الدكتور/ عصام العبد زهد، أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بغزة.

والبحث(٢) جيِّدٌ، إلا أنني لم أفد منه سوى النزر اليسير، فقد أفرغ الباحث جهده في تعريف المعجزة، وبيان شروطها، وأنواعها، وملائمة كل معجزة للزمن الذي ظهرت فيه، ثم ذكر صورا من أثر القرآن الكريم على النبي ﷺ وعلى الصحب الكرام ﷺ، وعلى النفوس المؤمنة والنفوس الكافرة، وختم بحثه ببيان موقف العلماء من الإعجاز التأثيري.

إلا أنَّ صاحب البحث قد فاته ما فات صاحبه من قبل فلم يُبين: ما الإعجاز التأثيري؟ وما مناطه؟

---

(١) نشر في مجلة جامعة دمشق، سنة: ٢٠٠٢م، العدد الأول.

(٢) نشر في مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، سنة: ٢٠٠٣م، العدد الثاني.

كما أنه لم يقدم تحليلاً وافيا لموقف العلماء منه مما يوضح منزلة هذا الوجه من الإعجاز بين سائر وجوه إعجاز القرآن الكريم.

كذلك ما قدمه من صور لأثر القرآن الكريم يختلف عما قدَّمتُه؛ لأن تأثير القرآن أعظم وأكثر من أن يلم به باحث.

وقد وفقني الله –تعالى– لسدِّ ما فَاتَ صاحبَيَّ من فراغٍ في هذا البحث.

الثالث: للدكتور/ خالد محمد القضاة، وقد قدمه إلى المؤتمر السّابع لكليّة الشريعة، جامعة الزرقاء الأهلية، الأردن، سنة: ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، تحت عنوان: إعجاز القرآن الكريم.

وهذا، لم أقف على هذا البحث[(١)] إلا بعد الانتهاء من إعداد بحثي، وهو بحق بحث قيِّم جاد، قدم فيه الباحث جهدا ملموسا، حيث عرض فيه مفهوم الإعجاز التأثيري، وتاريخ نشأته وتطوره، وصورا من تأثير القرآن الكريم.

وهي موضوعات تتفق في كثير مع ما قدمته، إلا أن الناظر فيه لم يجد ثمة تقاربا بين البحثين إلا في العناوين والخطوط العريضة له، وقد خالفته في كثير من القضايا الفرعية، نحو تعريف الإعجاز التأثيري، وسر تأثيره، وما قدمه من دراسات العلماء، وغير ذلك مما يسهل على القارئ الاطلاع عليه.

وأخيراً أحسب أن ما قدمته قد سد فراغا كبيرا مما فات إخواني الفضلاء، ولا يسعني إلا أن أقول لهم: الفضل للمبتدي، ولو أحسن المقتدي.

---

(١) نشر هذا البحث على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)– موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابط:

http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=698

الفصل الأول

مدخل إلى الإعجاز التأثيري

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإعجاز التأثيري.

المبحث الثاني: تعدد وجوه إعجاز القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الإعجاز التأثيري في دراسات العلماء.

المبحث الأول

تعريف الإعجاز التأثيري[1]

لا يتسنى تعريف "الإعجاز التأثيري" إلا إذا تَمَّ تعريف كلٍّ من كلمتي: "الإعجاز"، و"التأثير".

* فـ"الإعجاز" من العَجْز، وهو في العرف: الضعف والقصور عن فعل الشيء، فمعنى: "عجز فلان"؛ أي: صار عاجزا.

وأعجزت فلانا؛ أي: جعلته عاجزا، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾[٢][٣].

فالهمزة في "الإعجاز" للإثبات وليست للإزالة؛ أي: إثبات العجز في الغير.

والمراد بالإعجاز هنا هو إعجاز القرآن الكريم خاصة، وهو يعني ارتقاء القرآن في البلاغة والفصاحة وصور الإعجاز الأخرى إلى أن تخرج عن طوق البشر، فيعجزوا عن معارضته، لعلوه على كل كلام دونه[٤]

* والتأثيريّ، نسبة إلى التأثير، من الأثر، وهو حصول ما يدل وجود الشيء، سواء أكان حسيا أم معنويا، وأثَّر في الشيء تأثيرا؛ أي: جعل فيه أثرا وعلامة[٥].

---

(١) آثرت الاختصار في هذا المبحث اكتفاء بما ذكره الدكتور عصام العبد في بحثه الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم.

(٢) سورة التوبة، من الآية: ٢.

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ٤١٩/٢، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز – الرياض، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي صـ١٤٩، ط: مكتبة لبنان – بيروت، مادة: عجز.

(٤) الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم للدكتور عصام العبد صـ٩٠.

(٥) المفردات في غريب القرآن ١٠/١، والمصباح المنير صـ٢، مادة: أثر.

* وإذ قد عرّفتُ كلا من "الإعجاز" و"التأثير" يمكن تعريف الإعجاز التأثيري بأنه:

ما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو خفيٍّ، على المكلَّف أو غيرِه، مما يَعْجَز عن إحْداثِ مثله كلامٌ غيرُه.

فالأثر الظاهر نحو ما يظهر على المكلف من أثر حسن على أخلاقه وسلوكه، وما يظهر على المجتمع من مظاهر الرقي والتقدم.

والأثر الباطن نحو ما يجده في نفسه من لذة أو من تغيرات فسيولوجية ربما لا تظهر إلا من خلال أجهزة إلكترونية.

والمراد بـ"المكلف" ما يشمل الإنس والجن.

بـ"غير المكلف" يشمل ما سوى الثقلين من حيوان أو شجر أو حجر أو نحو ذلك.

* * *

المبحث الثاني

تعدد وجوه إعجـاز القـرآن الكـريم

المطلب الأول: وجـوه إعجـاز القـرآن الكـريم

لست بصدد تتبع واستقصاء وتأريخ آراء العلماء حول وجوه إعجاز القرآن الكريم، فقد قُدِّمَ في ذلك العشرات من المؤلفات والرسائل العلمية المتخصصة والأبحاث، ولكن الذي أريد أن أعرج عليه هو بيان أبرز تلك الوجوه معقِّباً عليها بما لاح لي من وجهة نظر، فأقول -وبالله التوفيق-:

قد تعددت وجوه إعجاز القرآن الكريم، إلى أكثر من أربعين وجهاً، إلا أن أبرزها أحد عشر وجها:

الأول: الإعجاز البياني، ويتمثل هذا الوجه في صدق المعنى، وصحة اللفظ، ودقة التركيب؛ حيث اشتمل القرآن الكريم على أصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني[(١)].

وقد كان هذا الوجه هو مدار الارتكاز في قضية الإعجاز القرآني في كلام السابقين كأمثال أبي بكر الباقلاني وأبي عيسى الرماني وأبي سليمان الخطابي وعبد القاهر الجرجاني.

وهو جدير بتلك المنزلة؛ لأن أبرز ما تنافس حوله العرب قبيل نزول القرآن هو الفصاحة في البيان، والروعة في التصوير، والدقة في التعبير، والعذوبة في المنطق، فجاءهم القرآن بما تعجز ألسنتهم عن الإتيان بأقصر سورة منه.

---

(١) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي صـ٢٧، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، ط: دار المعارف بمصر، الثالثة.

الثاني: ما اشتمل عليه من أسلوبٍ يخالف ما عليه العرب في نظمها ونثرها، فلا يشبه شيئا من كلامهم، مع كون ألفاظه وتراكيبه من جنس ألفاظهم وتراكيبهم المستعملة في نظمهم ونثرهم.

الثالث: ما اشتمل عليه من أنباء القرون الماضية التي اندرس أكثرها لولا إخبار القرآن الكريم عنها، كما قال الحق -تبارك وتعالى- تعقيبا على قصة نوح عليه السلام: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾(1).

وقال تعقيبا على قصة يوسف عليه السلام وإخوته: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾(2).

وقال في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾(3).

والمراد من قوله تعالى: "وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ": أن ما كان من أخبارِ تلك القرون قد اندرس، ولم يعد لها ذكر، لولا إخبار القرآن عنها.

وقال -جل شأنه- في قصة مريم البتول: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(4).

الرابع: ما فيه من الأخبار عما يقع في المستقبل، كما أخبر عن غلبة الروم على الفرس في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ

---

(1) سورة هود، الآية: ٤٩.

(2) سورة يوسف، الآية: ١٠٢.

(3) سورة القصص، الآيتان: ٤٤،٤٥.

(4) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾﴾[١].

وكما أخبر عن هزيمة قريش يوم بدر، والمسلمون يومئذ قليل مستضعفون، قال تعالى: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[٢].

فهذه أخبار لا يحيط بها إلا رب العالمين أو من أوقفه الله –تعالى– عليها، فدل على أن الله –تعالى– قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه[٣].

الخامس: نزول القرآن الكريم منجما في ثلاثة وعشرين عاما على تعدد موضوعاته واختلاف دواعي نزوله ووقائعه، مع سريان روح إحكام السرد فيه، ودقة السبك، ومتانة الأسلوب، وقوة الاتصال بين أوله وآخره، فلا تجد تفاوتا بين آيهِ وسورِه في ذلك، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾[٤].

السادس: تعدد القراءات، ووجه الإعجاز فيها: أنها مع كثرتها وتعددها لا تجد بينها تناقضا أو تضادا، ولا تهافتا أو تخاذلاً، بل تقع من بعضها البعض موقع التصديق والبرهان، والتوضيح والبيان، مع كونها جميعاً على نمطٍ واحد في علوِّ الأسلوب ودقة التعبير.

السابع: الإعجاز التشريعي، حيث اشتمل القرآن الكريم على تشريعات محكمة ومتكاملة تلبي حاجات الإنسان الروحية والمادية، وتوفر له أسباب السعادة الدنيوية والأخروية، مع بقائها ودوامها إلى قيام الساعة.

---

(١) سورة الروم، الآيات: ١:٤.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٥/١، ط: عالم الكتاب– الرياض.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

الثامن: الإعجاز العلمي، والمراد به: ما اشتمل عليه القرآن الكريم من حقائقَ كونيةٍ مما لم يكن للعرب ولا لغيرهم من الأمم حينئذٍ عهدٌ أو معرفَة بها، ثم أثبتها العلم التجريبي[1].

وليس معنى ذلك جعل العلوم التجريبية حكما على القرآن الكريم؛ لاستحالة أن يُجْعل من المقيَّدِ المحْدُودِ حَكَماً على الحقيقة المطلَقة.

ووجه الإعجازِ فيه: أنها بلغت من الشمولِ والإحاطة، ومن دقة التفصيل مبلغا يعجز عن أمثاله أجيال من العلماء، فهل يعقل أن يكونَ رجلٌ أميٌّ ما علَّمه بشر، ولا تلا كتابا، ولا خطَّ بقلم، أتى بمثل تلك العلوم من عند نفسه[2].

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[3].

وقوله جل وعلا: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾[4].

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٣﴾﴾[5].

التاسع: الإعجاز العددي، حيث شمل التناسبُ والتوازن كلَّ ما جاء في القرآن الكريم بما يعجز الثقلين أن يحيطوا بأسراره، فضلا عن أن يأتوا بمثله، وذلك نحو تساوي الألفاظ المتقابلة، والألفاظ المترابطة في الذكر، كالدنيا

---

(١) الموسوعة القرآنية المتخصصة صـ٦٩٢، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- مصر، سنة: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم صـ٢٤٦، ط: دار المسلم- الرياض، الثانية، سنة: ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢:١٤.

(٤) سورة القيامة، الآية: ٤.

(٥) سورة النور، الآية: ٤٣.

والآخرة فقد ذكرا ١١٥ مرة، والملائكة والشياطين فقد ذكرا ٦٨ مرة، والصلاة والنجاة فقد ذكرا ٦٨ مرة[١].

وكتكرار ذكر الشيء، كذكر القمر سبعا وعشرين مرة، فإنه موافق لدورانه حول نفسه في الشهر، يقول عبد الدايم الكحيل: «من خلال البحث والدراسة في آيات القرآن الكريم تبيَّن لي أن القرآن يحوي منظومة رقمية تشهد على عظمة هذا الكتاب، وتثبت لكل من في قلبه شك أن القرآن كتاب الله تعالى، وأن الإسلام رسالته الخالدة»[٢].

العاشر: بقاؤه ما بقي الزمانُ آيةً محفوظةً عن التصحيف والتحريف والزيادة والنقصان، فلم يستطع أحد أن ينقص منه كلمة، ولا يزيد عليه حرفا.

يقول الزرقاني: «القرآن بما اشتمل عليه من هذه المعجزات الكثيرة قد كتب له الخلود، فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول -عليه الصلاة والسلام- بل هو قائم في فم الدنيا، يحاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر»[٣].

الحادي عشر: الإعجاز التأثيري، وهو موضوع البحث والدراسة.

*وذهب بعض العلماء إلى أن الإعجاز وصف ذاتي للقرآن الكريم، يدرك ولا يوصف؛ وهو ما ذهب إليه بعض الأقدمين كأبي حيان التوحيدي والسكاكي[٤].

---

(١) الإعجاز العددي للقرآن الكريم د.عبد الرزاق نوفل صـ٨،٧،١٤٧، ط: دار الكتاب العربي- بيروت، الخامسة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، والندوة الثانية للإعجاز في القرآن الكريم صـ١٠٩، سنة: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

(٢) الندوة الثانية للإعجاز في القرآن الكريم صـ١٠٥.

(٣) مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقاني ٢٦٣/٢، ط: دار الكتاب العربي- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

(٤) مفتاح العلوم للسكاكي صـ٤١٦، ط: دار الكتب العلمية، سنة: ١٩٨٧م، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي صـ٦٥١، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، سنة: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

تعقيب:

إذا ما دققنا النظر في تلك الوجوه المذكورة يمكن استنتاج أمرين:

أولهما: أنها لا تتعدى الإعجاز بأحد أمرين: الإعجاز باللفظ، والإعجاز بالمعنى.

ولم ينص أحد من العلماء على ما للقرآن من تأثيرٍ واسع يتخطى نطاق النفس البشرية، ليتعدى إلى الكون كله علويِّه وسفليِّه، اللهم إلا عبارات متناثرات تدور حول ما يعتري النفس من الهيبة والوقار عند سماع للقرآن الكريم.

ثانيهما: أنه لا يستقيم واحد منها –إذا ما استثنينا الوجه الحادي عشر– أنْ يكونَ وجهاً معجِزا إلا إذا ضم إليه غيره من الوجوه؛ وذلك لعدة مسلَّماتٍ لم يسع أحداً إلا الإقرارُ بها:

الأولى: أن الإعجاز وصف لازم للقرآن وحده[1]، لا يتخطاه إلى غيره من الكتب السماوية من قبل، أو إلى كلام أفصَحِ من نطق بالضاد ﷺ.

فلو اعتبرنا أن مدار الإعجاز هو الإخبار بالغيب لكانت السنة النبوية معجزة لاشتمالها على أخبار ماضية وأخرى آتية، ولم يدَّعِ أحد أن السنة معجزة.

نعم! إخبار النبي ﷺ بالمغيبات دليل على نبوته، ولكنه ليس دليلا على ربانية القرآن.

الثاني: أن التحدي بالقرآن لم يكن خاصا بقوم دون قوم، ولا بجيل دون جيل، بل تحدى العرب والعجم على تفاوتِ ثقافتهم وتطور معارفهم، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[2].

---

(١) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي صـ٦٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

يقول محمود شاكر: «وأن هذا التحدي للثقلين جميعاً إنسهم وجنهم متظاهرين، تحدٍّ مستَمِرٌّ قائم إلى يومِ الدين»[1].

فلو اعتبرنا أنَّ الإعجازَ وقع بما اشتمل عليه القرآن الكريم من بلاغة أو أسلوب خالف المعهود من كلام العرب فحسب، لكان القرآن معجزا للعرب الفصحاء دون غيرهم.

وما يقال من أنَّ عجز العرب الفصحاء عن الإتيان بسورة مثله حُجَّةٌ على غيرِهم- فيه نظرٌ ؛ لأنَّ القرآنَ خاطب الناس جميعا عربهم وعَجَمَهم أصالةً لا تبعاً

الثالث: أن القدر المعجز من القرآن الكريم متحقق بأقصر سورة منه.

يقول الخطابي: «قد جعل -سبحانه- في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ . من غير تعيين»[2].

فلو اعتبرنا أن الإعجازَ متحقق بما اشتمل عليه من إعجاز غيبي وحده أو إعجاز تشريعي وحده، أو حقائق علمية وحدها لكانت بعض السور غير معجزة لعدم اشتمالها على شيء منها.

فهذه الوجوه لا تدلُّ على إعجاز القرآن الكريم إلا مجتمعةً؛ وهو ما ذهب إليه المحققون من العلماء؛ عزاه إليهم الزركشي[3].

يقول الخطابي: «ومعلوم أن الإتيانَ بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدَرُهم، فانقطع الخلق دونَه، وعجزوا عن معارضته بمثلِه، أو مناقضته في شكله»[4].

---

(١) مقدمة كتاب "الظاهرة القرآنية" صـ٣١.

(٢) بيان إعجاز القرآن صـ٢٣،٢٤.

(٣) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ٢/١٠٦، ط: دار إحياء الكتب العربية، الأولى، سنة: ١٣٧٦هـ،١٩٥٧م.

(٤) بيان إعجاز القرآن صـ٢٨.

ويقول الشهيد سيد قطب: «(إن الإعجاز يثبت للقرآن بهذه الوجوه) مكتملًا، فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها، ولا غيب، ولا علوم؛ ولا تجمع بطبيعة الحال كل المزايا المتفرقة في القرآن؟»[1].

وللشيخ الشعراوي رأي وجيهٌ، وهو أن كل وجه من تلك الوجوه خوطب به صنف من الناس، فمن نبغ في شيء تحداهم القرآن الكريم به، ففصحاء العرب تحداهم القرآن الكريم بأسلوبه وبلاغته، ومن نبغ في غير اللغة تحداهم القرآن الكريم بحقائقه التاريخية والعلمية[2].

* * *

(١) التصوير الفني في القرآن صـ١٧، ط: دار الشروق، السادسة عشرة، سنة: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، بتصرف.

(٢) تفسير الشعراوي ١٩/١، ط: أخبار اليوم.

المطلب الثاني: أبرز وجوه إعجاز القرآن الكريم.

تقرر –في المطلب السابق– أنه لا يستقيم وجه واحد من الوجوه السابقة أن يثبت به إعجاز القرآن الكريم، فهل ثمة وجه معجز على الإطلاق، هو مناط تحدي القرآن الكريم للعرب والعجم، للعلماء والعاميين وسرُّ عجزهم عن الإتيان بأقصر سورة مثله؟

وأعجل الجواب هنا بأن أبرز وجوه إعجاز القرآن الكريم يتمثل في الإعجاز التأثيري له.

ولبيان ذلك أقرر –بادئ ذي بدء– أمرين:

الأول: أن وجوه إعجاز القرآن الكريم لا تنحصر في عدد محدود، إذ إن أسراره لا تنتهي، وعطاءه لا ينقطع.

قال ابن سراقة[1]: «اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوها كثيرة، كلها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءا واحدا من عشر معشاره»[2].

والدليل على ذلك قوله ﷺ: «**كِتَابُ اللهِ فيه نَبَأُ مَا قَبْلَكُم، وخَبَرُ مَا بَعْدَكُم، وحُكْمُ مَا بَيْنَكم، وهو الفَصْلُ لَيْسَ بالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَه مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَه اللهُ، ومَن ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّه اللهُ، وهو حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وهو الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وهو الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هو الذِي لا تَزِيغُ به الأَهْوَاءُ، ولا تَلْتَبِسُ بِه**

---

(١) أبو الحسن محمد بن يحيى بن سراقة العامري، فقيه فرضي، من أهل البصرة، صنف كتبا في فقه الشافعية والفرائض ورجال الحديث، توفي في حدود ٤١٠هـ (الأعلام للزركلي ١٣٦/٧، ط: دار العلم للملايين، الخامسة عشر، سنة: ٢٠٠٢م).

(٢) الإتقان صـ٦٥٣.

الأَلْسِنَةُ، ولا يَشْبَعُ مِنْه العُلَمَاءُ، ولا يَخْلَقُ على كَثْرَةِ الرَّدِّ، ولا تَنقَضِي عَجَائِبُه»(١).

وقوله ﷺ: «**إنَّ هذا الْقرآنَ مَأْدُبَةُ اللَّهِ فَاقبلُوا من مَأْدُبَتِه مَا اسْتَطَعْتُم، إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللهِ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ به، وَنَجَاةٌ لِمَن تَبِعَه، لا يَزِيغُ فَيُستعتبَ، ولا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، ولا تنقَضِي عجَائِبُه، ولا يَخْلَقُ من كَثْرَةِ الرَّدِّ، اتْلُوه؛ فإنَّ اللهَ يَأْجُرُكم على تِلاوَتِه كُلَّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَات، أمَا إنِّي لَا أقول "الم" حَرْفٌ، ولكن أَلِفٌ ولامٌ وميمٌ»**(٢).

الثاني: أنَّ العربَ وقت نزولِ القرآن الكريم قد بلغوا في الفصاحَةِ مبلغا لا يبارَى، وليس معنى ذلك أنهم كانوا جميعا على قدم المساواة في الفصاحة

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن، ح(٢٩٠٦)، عن علي ﷺ عن طريق الحارث الأعور، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال»

وأخرجه من هذا الطريق أيضا الدارمي في سننه، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن، ح(٣٣٧٤)، والبزار في مسنده ، ح(٨٣٦).

(سنن الترمذي ١٧٢/٥، ط: مصطفى البابي الحلبي- مصر، الثانية، سنة: ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، وسنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن ٢٠٩٨/٤، ط: دار المغني- السعودية، الطبعة الأولى، سنة: ١٤١٢هـ، ٢٠٠٠م، والبحر الزخار لأبي بكر أحمد بن عمرو البزار ٧١/٣، ط: مؤسسة علوم القرآن- بيروت، ومكتبة جامع العلوم والحكم- المدينة المنورة، الأولى، سنة: ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨).

(٢) ضعيف: أخرجه الدارمي في سننه ٢٠٨٩/٤، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن، ح(٣٣٥٨) عن عبد الله بن مسعود ﷺ من طريق أبي إسحاق إبراهيم بن مسلم الهَجَري، والحاكم في المستدرك، كتاب: فضائل الأعمال، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر»، ولم يوافقه الذهبي في التلخيص؛ حيث قال: «إبراهيم بن مسلم ضعيف». (المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم ٥٥٥/١، ط: دار المعرفة-بيروت، وبذيله التلخيص للذهبي).

وإدراك معاني الكلام ووجوه بلاغته، بل تفاوتوا فيما بينهم، فكان منهم من لا يشق له غبار بين أقرانه في فصاحة الكلام وإدراك بلاغته، ومنهم من لا يميز بين فصيح الكلام وأفصحه، بل لا يميزُ بين غثه وسمينه، وليس أدل على ذلك من تلك التُّرَّهات التي اختلقها مسيلمة الكذاب، وادعى أنها قرآنٌ موحى به إليه، فانخدع به كثيرٌ من بني قومه، وتابعوه على ما ادعاه من النبوة، من ذلك قوله: "يا ضفدع بنت ضفدع نقّي ما تنقّين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدّرين".

وقوله: "والمبديات ذرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فضّلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعترَّ فأووه، والباغي فناوئوه"(١).

وكذلك ما كان من عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله: ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: «**إِنَّكَ لَعَرِيضُ القَفَا، إِنْ أَبْصَرْتَ الخَيْطَيْنِ**» ثم قال: «**لاَ بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ**»(٢).

ومع ذلك –أقصد: تفاوت العرب في الفصاحة وإدراك وجوه الكلام– فقد ملك القرآن الكريم عليهم جميعا قلوبهم وعقولهم، فما كان أحدهم يملك نفسه

---

(١) إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع لتقي الدين محمد بن علي المقريزي ٥٢٩/١٤، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، سنة: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، وينظر: تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي ١٤٠/٢، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، سنة: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه ١٩٨/٣، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ إلى قوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨٧]، ح(٤٥١٠)، ومسلم في صحيحه صـ٥٤٩، كتاب: الصيام، باب: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن له الأكل وغيره حتى يطلع الفجر، ح(١٠٩٠).

أمام القرآن الكريم إلا أن يستمع إليه مصغيا ومنصتا، وأن يقر بما له من قوة مؤثرة، تملك عليه وجدانه، يستوي في ذلك كبارهم وصغارهم، رجالهم ونساؤهم، من ملك منهم نواصي البلاغة ومن هو دونه، فقد روت لنا كتب السيرة في هذا الباب ما تجد فيه العجب، وأسوق من ذلك على سبيل المثال ما يلي:

١- أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يصلي بالليل في بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع فيه، وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا.

ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة.

ثم انصرفوا فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: يا أبا ثعلبة! والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء،

فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس بن شريق[(١)].

٢- أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم! إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: ليعطوكه؛ فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له -أو أنك كاره له-. قال: وماذا أقول، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلا، وأنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر، قال: "هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره"؛ فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾[(٢)(٣)].

٣- لم يتوقف الأمر على أولئك النفر من قريش، بل تجاوز حتى شمل كبارهم وصغارهم، فقد روت كتب السنة أن نساء المشركين وأبناءهم كانوا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٣٧،٣٣٨/١، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

(٢) سورة المدثر، الآية: ١١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن ٢٤/٢٤، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، سنة: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، والحاكم في المستدرك ٥٠٣،٥٠٢/٢، كتاب: التفسير- تفسير سورة المدثر، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «على شرط البخاري».

يتقصفون[1] على دار أبي بكر الصديق ﷺ يستمعون تلاوته –وهو يرفع صوته بالقرآن الكريم– ويعجبون إليه[2].

---

(١) يتقصفون: يتدافعون ويزدحمون (الصحاح للجوهري ١٤١٦/٤، ط: دار العلم للملايين– بيروت، الرابعة سنة: ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م).

(٢) عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشيا، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا قِبَلَ أرض الحبشة، حتى إذا بلغ بَرْك الغِماد، لقيه ابن الدَّغِنَّة وهو سيد القارَّة، قال: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. قال: إن مثلك لا يخرج؛ إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتَحمِل الكَلَّ، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك، فارتحل ابن الدغنة مع أبي بكر، فطاف في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق! فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وقالوا له: مر أبا بكر يعبد ربه في داره، فليصل وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يَفتن أبناءنا ونساءنا، قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكرٍ يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجدا بفناء داره، وبرز، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكَّاءً لا يكاد يملك دمعه حين يقرأ، فأفزع ذلك أشراف قريش فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك، فابتنى مسجدا بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يَفتن أبناءنا ونساءنا، فأته فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر، فقال: قد علمتَ الذي عقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له، قال أبو بكر: أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله، ورسولُ الله ﷺ بمكة فقال رسول الله ﷺ: «**قد أريت دار هجرتكم، رأيت سَبْخة ذات نخل بين لابتين**»، وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة، وتجهز أبو بكر مهاجرا، فقال له رسول الله ﷺ: «**على رسلك،**

وكان بعضهم يوصِي بعضا بعدم سماع القرآن الكريم؛ وذلك خشية التأثر به، وذلك لشعورهم القويّ بما للقرآن من أثر في نفوسهم وعقولهم، كما حكى القرآن عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾[1].

هذا، ولم يتوقف تأثير القرآن الكريم عند العرب الحاذقين لأساليب العربية وحدهم، ولكنه يتسع ليشمل الطفل والعامي، يقول الأستاذ محمد فريد وجدي: «ألا ترى أن الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن، حتى أنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن فيما لو أراد التالي أن يغشهما»[2].

ولم يكن مقصورا كذلك على العرب وحدهم، بل شمل العجم أيضاً، فقد أجريت تجارب استعملت فيها أجهزة المراقبة الإلكترونية المزودة بالكمبيوتر لقياس أيِّ تغييرات فسيولوجية عند عدد من المتطوعين الأصحاء أثناء استماعهم لتلاوات قرآنية.

وقد تم تسجيل وقياس أثر القرآن الكريم على عدد من المتحدثين بالعربية، مسلمين وغير مسلمين، وعلى عدد من غير المتحدثين بالعربية، مسلمين وغير مسلمين، فقد تليت عليهم مقاطع من القرآن باللغة العربية، ثم تليت عليهم ترجمة هذه المقاطع باللغة الإنجليزية .

وفى كل مجموعة من هذه المجموعات أثبتت التجارب المبدئية وجود أثر كبير مهدِّئ للقرآن اختلفت درجته باختلاف التلاوة، فمن تلي عليه القرآن بلفظه

فإني أرجو أن يؤذن لي»، قال أبو بكر: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «**نعم**»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليَصْحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُرِ أربعة أشهر».

(أخرجه البخاري في صحيحه ١٤٢/٢، كتاب: الكفالة، باب: جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، (٢٢٩٧).

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدي ٦٧٩/٧، ط: دار الفكر- بيروت.

سُجِّل عليه أثر أكبر ممن تليت عليه معانيه مترجمةً، وهذا الأثر ظهر في شكل تغيرات فسيولوجية تدل على تخفيف درجة توتر الجهاز العصبي التلقائي، وقد عرضت تفاصيل هذه النتائج المبدئية على المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطبية الإسلامية بأمريكا الشمالية[(١)].

يقول صاحب كتاب "مع القرآن": «وبلغنا أن بعض الأوربيين –وهم لا يعرفون العربية، ولا يفهمون معنى الآيات– كانوا يطربون لسماع القرآن، حتى آمن بعضهم بمجرد السماع للقرآن من المذياع، وبعضهم آمن لسماع القرآن من حجرة مجاورة لساكن معهم، أو لسماعه من جماعة يصلون في حديقة ... وهكذا نجد أثر القرآن واضحا جليا في جذب الناس إلى الإسلام وتحويلهم من الكفر إلى الإيمان»[(٢)].

من هنا يمكن أن نقرر أن للقرآن الكريم تأثيرا قويا على النفس البشرية.

ولم يتوقف تأثير القرآن الكريم عند حدود النفس البشرية، وإنما شمل الجن، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾[(٣)].

وشمل أيضا الحجر والشجر، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٧٤﴾[(٤)].

---

(١) شبكة المعلومات الدولية: رابط:

http://forum.sh3bwah.maktoob.com/t1774.html

(٢) مع القرآن الكريم للشيخ محمود خليل الحصري صـ٢٨٠، نقلا عن الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم للدكتور عصام العبد، مجلة الجامعة الإسلامية ١١٦/١١، ١١٧، وينظر: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي صـ٤٩٦: ٥٠٠، ط: دار عمان– الأردن، الأولى، سنة: ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

(٣) سورة الجن، الآيتان: ١، ٢.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٧٤.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾(1).

وقوله جل شأنه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾(2)(3).

وما ثبت بالتجارب العلمية أكثر من أن يحصى، فقد نقل د.محمد راتب النابلسي تجربة أعدها أحد الباحثين العرب سنة: ١٩٩٧م، بكلية العلوم –ولم يذكر اسمه أو اسم الجامعة– مفادها: أن الباحث نصب بعض البيوت البلاستيكية موحدةً في حجمها، وملأها ترابا بكميات متساوية، وزرع في كل واحدة منها قمحاً من نوع واحد، وهيأ الظروف الملائمة للإنبات من درجة الحرارة والسقي والسماد بصورة متساوية، ثم أمر إحدى طالباته أن تقرأ على إحدى البيوت سورة يس، والفاتحة، والإخلاص، وآية الكرسي، مرتين في الأسبوع، وترك ما سواها من غير قراءة، فكانت النتيجة أن نبات البيت الذي استمع للقرآن الكريم ازداد طوله بنسبة أربعة وأربعين بالمائة من الطول الطبيعي للنبات، وازدادت غلته بنسبة مائة وأربعين بالمائة من الغلة الطبيعية له.

فلم يكن كلامٌ يتخطى تأثيره النفسَ البشرية ليشمل جميع الخلائق سوى كلام الله تعالى، مما يجعلني أجزم القول بأن التأثر القرآني هو أبرز وجه من وجوه إعجازه على الإطلاق؛ إذ إن ذلك متحقق في جميع آياته وسوره، غير متوقف على تمييزٍ أو علم من أحدث فيه ذلك الأثر.

يقول عبد الكريم الخطيب: «وهذا الوجه من وجوه الإعجاز هو – فيما نرى – المعجزة القائمة في القرآن أبداً، الحاضرة في كل حين»(4).

---

(١) سورة الرعد، من الآية: ٣١.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٣) سيأتي مزيد من الدراسة لهذه الآيات.

(٤) الإعجاز في دراسات السابقين صـ١٩٣، ط: دار الفكر العربي، الثانية، سنة: ١٩٧٤م.

المطلب الثالث: مناط التأثير القرآني.

ذهب بعض العلماء إلى أن مناط تأثير القرآن الكريم في النفس هو ما امتاز به القرآن الكريم من فصاحة البيان ودقة التعبير وصحة المعاني؛ وهو ما ذهب إليه أبو بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني ومن المحدثين عبد العظيم الزرقاني ومحمد الغزالي.

وذهب الشهيد سيد قطب إلى أن سر هذا التأثير هو التصوير الفني للقرآن الكريم.

إلا أن ما ذهبوا إليه يجعل تأثير القرآن مقصورا على من تذوق أسلوبه، وعرف فصاحته، وأدرك دقة تصويره، وذلك خلاف ما صرحوا به من شمول هذا التأثير للعرب والعجم، للعلماء والعامين.

مما يجعلني أجزم القول بأن مناط هذا التأثير وسره هو أن القرآن قد خاطب جوانب النفس البشرية، التي لم يحط بها أحد إلا الله سبحانه؛ فهو خالقها العليم بخفاياها، يقول الشعراوي: «على أن المعجزة لا تأتي في حرف فقط، بل تأتي أيضا في مخاطبة القرآن للملكات البشرية المستورة، الشيء الذي ينبئ عن علم تام بخفايا النفس البشرية وملكاتها، التي نعرفها والتي نجهلها»(١).

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾(٢).

وقوله جل شأنه: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ (٣).

---

(١) معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي ٤٩/١، ط: أخبار اليوم.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٣) سورة النحل، من الآية: ٢.

وقوله جل وعلا: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾(1).

فالمراد بالروح في الآيات السابقة هو القرآن الكريم، وقد سماه الله –تعالى– روحا؛ لأنه يقوم مقام الروح للجسد؛ إذ به تَحيى النفوس، كما تحْيى الأجسادُ بالأرواحِ.

يقول محمد فريد وجدي: «قد ثبت أن تكرار تلاوة (القرآن) تزيده تأثيرا، ولكنه تسلط على النفس والمدارك .... العلة في نظرنا واضحة لا تحتاج لكثير تأمل، وهي أن القرآن روح من أمر الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها»(2).

فإذا كان القرآن الكريم له تأثير قوي في النفس، فإن تأثيره لا يختلف من روح إلى روح؛ لأن جوهر الأرواح وفطرتها لا تختلف من شخص إلى شخص، يقول الفخر الرازي: «الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف، ثم يحصل فيها العلوم والمعارف، فهي لا تزال تكون في التغيير من حال إلى حال، وفي التبديل من نقصان إلى كمال»(3)

فجميع الأرواح أمام التأثير القرآني سواء، يستوي في ذلك العربي والعجمي؛ والقرآن الكريم إذ يخاطب النفس إنما يخاطب جوهرها وفطرتها التي لم يحط بها علما إلا الله وحده، وذلك هو سر تأثير القرآن في نفوس من يفهم معانيه ومن لا يفهمها سواء بسواءٍ.

---

(1) سورة غافر، الآية: ١٥.

(2) دائرة معارف القرن العشرين ٦٧٧/٧، بتصرف.

(3) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ٣٩/٢١، ط: دار الفكر، الأولى، سنة: ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

ثم انظر إلى هذا التوافق العجيب بين تسمية القرآن روحاً، وتسمية ما به سبب حياة الأجساد روحاً، في قوله جل شأنه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُـم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [١].

فللأرواح حياة لا تتحقق إلا بالقرآن الكريم، يقول الشعراوي: «والقرآن روح، من لا يعمل به تكون حركة حياته بلا قيم، إذن كل ما يتصل بالمنهج فهو روح»[٢]، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْـتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَـا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِـهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ ﴾[٣].

وكذلك مناط تأثير القرآن الكريم على سائر المخلوقات هو أن الله – تعالى– عالم بحقائقها، محيط بأحوالها خبير بأسرارها، فضمن كتابه ما به تتأثر تلك المخلوقات.

* * *

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) تفسير الشعراوي ٤٤٨/١.

(٣) سورة الأنعام، من الآية: ١٢٢.

المبحث الثالث

الإعجاز التأثيري في دراسات العلماء.

إعجاز القرآن الكريم أمر أدركه فصحاء العربية وأساطينها مما أيأسهم من محاولة أن يأتوا بمثل أقصر منه، إلا أن الحديثَ عن وجوه الإعجاز –في عصر تدوين العلوم– تناثر في ثنايا القضايا المتعلقة بالقرآن الكريم، حتى جاء القرن الثالث الهجري، فاستقلت قضية الإعجاز بالتأليف المفرد، فمن هذه المؤلفات ما حفظه لنا التاريخ، ومنها ما ضاع ضمن ما ضاع من تراث الأمة، حيث ألف الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) كتابه "نظم القرآن"، وأبو بكر السجستاني (ت: ٣١٦ هـ) كتاباً بهذا العنوان، وألف أبو عبد الله الواسطي المعتزلي (ت:٣٠٦هـ) كتابه "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه"(١)، ولا تزال جهود العلماء موصولة إلى اليوم بالتأليف فيه.

إلا أنه لم يشر أحد من العلماء إلى ما نحن بصدد الحديث عنه من الإعجاز التأثيري قبل الإمام الخطابي (ت: ٣٨٨هـ).

وسأعرض –بفضل الله– أقوال أبرز العلماء من السابقين والمحدثين الذين تناولوا قضية الإعجاز التأثيري في مصنفاتهم:

أولاً: الإعجاز التأثيري في أقوال السابقين:

١- الخطابي (ت:٣٨٨هـ ٩٩٨م)

يقول الخطابي: «قلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشواذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس؛ فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص

(١) الإعجاز البياني للقرآن للدكتور عائشة عبد الرحمن صـ١٥ وما بعدها، ط: دار المعارف– القاهرة، سنة: ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة، قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوٍّ لرسول الله ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً»(1).

٢- أبو بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ، ١٠١٣م)

يقول الباقلاني: «فالقرآن أعلى منازل البيان .... وإذا علا الكلام في نفسه، كان له من الوقع في القلوب، والتمكن في النفوس ما يُذهِل ويُبهج، ويُقلق ويؤنس، ويُطمع ويُؤْيِسُ، ويُضحك ويُبكي، ويحزن ويُفرح، ويُسكن ويزعج، ويشجي ويطرب، ويهز الأعطافَ، ويستميل نحوه الأسماعَ، ويورث الأَرِيحِيَّةَ والعزة، وقد يَبعث على بذل المُهَج والأموالِ شجاعةً وجوداً، ويرمي السامع من وراء رأيه مرمىً بعيداً.

وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة، وبحسب ما يترتب في نظمه، ويتنزل في موقعه، ويجري على سمت مطلعه ومقطعه- يكون عجيبُ تأثيراتِه، وبديعُ مقتضياته»(2).

٣- القاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ، ١١٤٩م)

يقول القاضي عياض: «ومنها -أي: من وجوه إعجاز القرآن- الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته، لقوة حاله وإنافة خطره، وهي على المكذبين به أعظم، حتى كانوا

---

(١) بيان إعجاز القرآن صـ٧٠.

(٢) إعجاز القرآن الكريم لأبي بكر الباقلاني صـ٤١٩، ط: دار المعارف- القاهرة.

يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفورا، كما قال تعالى، ويودون انقطاعه لكراهتهم له ولهذا قال ﷺ: «**إِنَّ الْقُرْآنَ صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَهُوَ الْحَكَمُ**»[1].

وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابا وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به»[2].

٤- ابن القيم (ت: ٧٥١هـ، ١٣٥٠م)

يقول ابن القيم: «ومنهم من قال: إعجازه حصل بما فيه من نشاط القلوب الواعية وغير الواعية إليه، وإقبالها بوجه المودة عليه، واستحلاء طعم عذوبة ألفاظه ومعانيه وهشاشتها بما يتردد عليها من مبشراته المبهجة، ومحذراته المزعجة، وآياته المقلقة، وأخباره المونقة، مع كثرة قرعه للأسماع، وصدعه بما يخالف الطباع، ومع ذلك فالقلوب مقبلة على أذكاره راغبة في تكراره، شجية عند سماع مزماره، يجد ذلك منهم البر والفاجر والمؤمن الكافر، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ الآية[3].

وروي أنَّ نصرانيا مرَّ بقارئ فوقف يبكي، فقيل: له مما بكاؤك؟ قال: الشجا والنظم.

---

(١) قال السيوطي في مناهل الصفا صـ١٧٧: «الحديث بطوله (أخرجه) أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي عن الحكم عن عمير الشمالي»أ.هـ بتصرف. (مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا صـ١٧٧، ط: مؤسسة الكتب الثقافية، ودار الجنان للنشر والتوزيع- بيروت، الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م).

وقول السيوطي: "الشمالي" تحريف، لعله من النساخ، والصواب: "الثّمالي"، نسبةً إلى ثمالة من الأزد، والتصويب من أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٥١/٢، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، سنة: ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض صـ٣٨٤، ٣٨٥ ط: دار الكتاب العربي، سنة: ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، بتصرف يسير، وذكره السيوطي في معترك الأقران في إعجاز القرآن ١٨٣/١، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

(٣) سورة الزمر، من الآية: ٢٣.

وفي الحديث الذي وصف به النبي ﷺالقرآن بأنه "**لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل، لا تشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، وهو الذي لم تلبث الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ الآيات**"(١).

وقد اعترض على هذا القول بأنه قد يوجد في السنة وكلام فصحاء العرب وأشعار فحول الشعراء ما يحسن موقعه وتشرئب النفوس إلى سماعه، ولا تمله على تكراره»(٢).

٥- برهان الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـ، ١٣٩٢م)

يقول الزركشي: «فمنها الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعهم، سواء المقرين والجاحدين، ثم إنَّ سامعه إن كان مؤمنا به يداخله روعة في أول سماعه وخشية، ثم لا يزال يجد في قلبه هشاشة إليه ومحبة له، وإن كان جاحدا وجد فيه مع تلك الروعة نفورا وعيا؛ لانقطاع مادته بحسن سمعه»(٣).

والملاحظ مما ذكره هؤلاءِ الأئمة أنهم اتفقوا على عدة أمور:

الأول: أنهم لم يعتبروا هذا الوجه وجها بارزا من وجوه إعجاز القرآن، كالإعجاز اللغوي، أو التشريعي، أو الإخباري.

ألا ترى أن أكثر الناس قد ذهبوا عنه -كما قال الخطابي- وكذلك ما أثير حوله من اعتراضٍ -كما نقله ابن القيم- ولو كان وجها بارزا لما غفل عنه أو اعترض عليه أحد.

كما أن الباقلاني قد جعله أثرا مترتبا على بلاغة القرآن وفصاحته، وذلك مما انتقده الأستاذ محمد فريد وجدي بقوله: «فإن للبلاغة على الشعور الإنساني

---

(١) سبق تخريجه صـ١٥.

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم صـ٢٤٩،٢٥٠، ط: مكتبة الخونجي، الأولى، سنة: ١٣٢٧هـ.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٠٦/٢،١٠٧.

تسلطا محدودا، لا يتعدى الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال في الضعف شيئا فشيئا بتكرار سماعه، حتى تستأنس به النفس، فلا يعود يُحدث فيها ما كان يُحدثه في مبدأ تواردِه عليها، وليس هذا شأن القرآن؛ فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً»(١).

الثاني: أن ما ذكروه من تأثير القرآن الكريم لم يتعد أن يكون تأثيرا في النفس البشرية، أما تأثيره في الجن والشجر والحجر وسائر المخلوقات، فلم يشر إليه أحد منهم.

الثالث: أن ذلك التأثير لم تتوقف حدوده عند مَنْ آمن به وأدرك معانيه، ولكنه يتسع ليشمل مَنْ لم يَعِ شيئاً منها أو حجده، إلا أن المؤمن به كلما ارتشف من معانيه، تعمق أثره في النفس.

ثانياً: الإعجاز التأثيري في أقوال المحدثين

لقد قرر علماؤنا في العصر الحديث أن الإعجاز التأثيري هو أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم مدللين عليه، ومعللين له، إلا أنه اختلفت أنظارهم حول عدة أمور، أبرزها أمران:

***الأول*: استقلال هذا الوجه**، فهل هو مستقل بنفسه عن غيره من بعض وجوه الإعجاز الأخرى أو أنه مترتب على غيره من وجوه الإعجاز الأخرى؟

***الثاني*: محيط هذا التأثير**، فهل هو شامل لجميع المخلوقات، أو أنه لا تتعدى حدوده بعض المكلفين من الثقلين؟

وفيما يلي طرح لنماذج من تلك الرؤى مقتصرا –بتوفيق الله تعالى– على ثلاثة من أبرز علماء القرن العشرين الميلادي:

١–محمد عبد العظيم الزرقاني (ت: ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م):

(١) موسوعة القرن العشرين ٦٧٧/٧.

لقد كان الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم أحد الوجوه البارزة لإعجازه فيما قرره الشيخ الزرقاني، فقد عده الوجه الرابع عشر، ويمكن تصوير ما ذهب إليه فيه؛ أي: في تأثير القرآن الكريم، في أربع نقاط رئيسة:

الأولى: أن تأثير القرآن الكريم في سامعيه قد خرق العادة في تأثير ما عرف من كتب الله المنزلة، أو كلام أحد الناس، فيقول: «إن القرآن بلغ في تأثيره ونجاحه مبلغا خرق به العادة في كل ما عرف من كتب الله والناس، وخرج عن المعهود في سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام»[١].

الثانية: أن تلك الثورةَ الإصلاحية المتكاملةَ الجوانبِ والمتجددةَ في العالم بأسره ما كان لها أن تتحقق لولا تأثير القرآن الكريم في القلوب، فذلك الإصلاح نتيجة حتمية لما له من تأثير بالغ، فيقول: «إن الإصلاح العام الذي جاء به القرآن والانقلابَ العالمي الذي تركه هذا الكتاب ما حدث، ولم يكن ليحدث في أي عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه، إلا على أساس من الإيمان العميق القائم على وجدان قويٍّ»[٢].

الثالثة: أن أداةَ ذلك التأثيرِ هو ما اشتمل عليه من أسلوبٍ معجز، هزَّ النفوس والمشاعر، وملك القلوبَ والعقولَ، فيقول: «وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذي هزَّ النفوسَ والمشاعر، وملك القلوب والعقول، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزوله إلى اليوم يخشون بأسه وصولته، ويخافون تأثيره وعمله أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة والحرب الجائحة»[٣].

فلم يكن هذا الوجه –في وجهة نظره– مستقلا بنفسه، وإنما هو نتيجة مترتبة على أسلوبه المعجز.

---

(١) مناهل العرفان ٢/٣١٤.

(٢) المرجع السابق ٢/٣١٤.

(٣) المرجع السابق ٢/٣١٥.

الرابعة: أنه ما دام الأسلوب القرآني هو أداة تأثيره، فإنه قاصر على من فهم معناه وتذوق حلاوته، أما غيرهم من العوام أو الأعاجم فيكفيهم إخبار من تذوق حلاوته وشهد بتأثيره، فيقول: «هذا التأثير الخارق أو النجاح الباهر الذي نتحدث فيه أدركه ولا يزال يدركه كل من قرأ القرآن في تدبر وإمعان ونَصَفَةٍ، حاذقا لأساليبه العربية، ملما بظروفه وأسباب نزوله، أما الذين لم يحذقوا لغة العرب ولم يحيطوا بهذه الظروف والأسباب الخاصة فيكفيهم أن يسألوا التاريخ عما حمل هذا الكتاب من قوة محوِّلة غيرت صورة العالم»(١).

فلم يسع هذا التأثير –فيما قرره– سوى الحاذقين أساليب العربية بالفطرة أو التعلم، الواقفين على معاني القرآن الكريم.

٢– محمد فريد وجدي (ت: ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م):

الأستاذ محمد فريد وجدي رائد من روَّاد الفكر الإسلامي وعَلَم من أعلامه، يعتبر صاحب القول بالإعجاز التأثيري للقرآن الكريم.

ويتلخص ما ذهب إليه في أربع نقاط:

الأولى: أن للقرآن الكريم سلطانا قويا وتأثيرا بالغا على النفس، لم يسع أحدا إنكاره، ولم يكن ذلك السلطانُ نابعا من جهة بلاغته، وإنما سلطانه من جهة أنه روح من أمر الله تعالى، فيقول: «فإن للبلاغة على الشعور الإنساني تسلطا محدودا، لا يتعدى الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال في الضعف شيئا فشيئا بتكرار سماعه .... وليس هذا شأن القرآن؛ فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً، ولكنه تسلط على النفس والمدارك، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذي كان على عقول الآخذين به.

العلة في نظرنا واضحة لا تحتاج لكثير تأمل، وهي أن القرآن روح من أمر الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾

---

(١) المرجع السابق ٢/٣١٤.

فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد، فيحركها ويتسلط على أهوائها»[1].

الثانية: أن روحانية القرآن وتأثيره في القلوب هي السبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن معارضة القرآن والإتيان بمثل أقصر سورةٍ منه، وبقائه معجزة خالدة تتلألأ في نورها الإلهي، وتتألق في جمالها القدسي، فيقول: «لما كان القرآن روح من أمر الله فلا جرم كانت له روحانية خاصة، هي عندنا جهة إعجازه، والسبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه»[2].

الثالثة: أن تلك الروحانية القرآنية تظهر للعارف باللغة وللجاهل بها، فيقول: «إن للقرآن ... روحانية يدركها من لا حظ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة، ألا ترى أن الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن، حتى إنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن فيما لو أراد التالي أن يغشهما»[3].

فمحيط تأثير القرآن الكريم شامل لجميع الثقلين، كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم.

الرابعة: أن التأْثِيرَ القويَّ للقرآنِ الكريمِ في القلوب هو السبب الوحيد لقلب النظم الفاسدة التي كانت شائعة في العالم، وإكساب هذه الفئة المؤمنة الخلافة في الأرض.

---

(١) موسوعة القرن العشرين ٦٧٧/٧، بتصرف، وينظر: الموسوعة القرآنية المتخصصة صـ٦٧٦.

(٢) موسوعة القرن العشرين ٦٧٧/٧.

(٣) موسوعة القرن العشرين ٦٧٩/٧، بتصرف.

ومن ثمَّ نقرر بأنَّ الأستاذ فريد وجدي هو أبرز من قال بالإعجاز التأثيري للقرآن الكريم في العصر الحديث معتبره أبرز وجوه إعجازه على الإطلاق، معلِّلا له، ومدلِّلا عليه.

٣- سيد قطب (١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م):

يمكن تحديدُ رأْي الشهيد في تأثير القرآن الكريم في ثلاث نقاط رئيسة:

الأولى: أن في كل آية من آيات القرآن الكريم قوةً خفيّةً هي مناط سلطانه على النفس وسر تأثيره في القلب، لا يستطيع أحد ممن سمع القرآن إنكار تلك الحقيقة، سواء من آمن به، أو استكبر عن الإذعان له، فيقول: «إن في النصوص القرآنية قوة خفية، وعنصرا مستكنا، يجعل لها سلطانا وإيقاعا في القلب والحس .... وهي ظاهرة ملحوظة لا سبيل إلى الجدال فيها، لأن السامع يدركها، ويميزها، ويهتز لها، من بين سائر القول»[(١)].

الثانية: أنَّ ذلك التأثير لم يكن تأثيرا عابرا سرعان ما يزول، ولكنه تأثير يتعمق في القلب كلما كرر تلاوته وتدبر معانيه، فيقول: «وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحا كلما اتسعَتْ ثقافة الإنسان، ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه، فليست هي مجرد وهلة تأثيرية وجدانية غامضة»[(٢)].

الثالثة: أن منبع ذلك التأثير كامن في النسق القرآني ذاته والتصوير الفني فيه، حيث يعبر بالصورة المحسة عن المعنى الذهني، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٨٠٤، ط: دار الشروق- القاهرة، الثانية والثلاثون، سنة: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٥/٢٨٠٥.

(٣) التصوير الفني في القرآن صـ٣٥،٣٦.

ويمكن الاعتراض على ما ذهب إليه الشهيد بأنَّ هذا العنصر الذي هو مناط التأثير القرآني لم يتسن لكثير من الناس إدراكه، مع إقراره بأنه لم يصغ للقرآن أحد إلا ملك عليه وجدانه وعقله.

والملاحظ على ما ذكره العلماء أن أحدا لم يقل بتأثير القرآن الكريم على سائر الحيوان أو النبات أو الجماد مع أن تلك حقيقة شهد لها القرآن ذاته، وأثبتها العلم التجريبي؛ كما سبق بيانه.

* * *

الفصـل الثـاني

مظـــاهر التـــأثير القـــرآني

تعددت آفاق ومظاهر تأثير القرآن الكريم، فبعض تلك المظاهر ثبت بالعلم التجريبي الحديث كعلاج الصرع، وبعضها ثبت بالسنة النبوية كالرقية بالفاتحة،، وبعضها ثبت بالقرآن ذاته، وحصر هذه المظاهر ودراستها مما يحتاج إلى رسالة علمية متخصصة.

وسأقصر الحديث –إن شاء الله تعالى– على بعض مظاهر التأثير القرآني في القرآن الكريم خشية الإطالة، وقد جاء مشتملا على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر التأثير القرآني على الإنسان.

المبحث الثاني: مظاهر التأثير القرآني على الجن.

المبحث الثالث: مظاهر التأثير القرآني على سائر المخلوقات.

المبحث الأول

مظاهر التأثير القرآني على الإنسان

إن الهدف الأسمى لنزول القرآن الكريم هو هداية الناس إلى أقوم السبل وأرشدها، فقد بيَّنَ الله –تعالى– الحقَّ ورغَّبَ فيه، والباطلَ وحذَّرَ منه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾(١).

ووصولاً لهذا الهدفِ الأعظم، فقد خاطب الله –تعالى– في كتابه ملكات النفس الخفية والظاهرة بما أثَّر فيها أشدَّ التأثيرِ وأقواه.

فإن كانت النفس البشرية لديها استعداد للهداية، أقبلت عليه متمسكةً به، وإن كانت لا تملك أَدْنى استعداد للهداية أعرضت عنه(٢)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾(٤).

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾(٥).

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٩،١٠.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٢٦/٢٦٦.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٤:١٢٥.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٥) سورة فصلت، من الآية: ٤٤.

فالآيات السابقة صريحة بأن تأثير القرآن العظيم على نفوس المؤمنين يختلف عن تأثيره على نفوس الكافرين، مما اقتضى تقسيم مظاهر تأثير القرآن إلى قسمين: مظاهر تأثيره على المؤمنين، ومظاهر تأثيره على الكافرين.

أولاً: مظاهر تأثير القرآن الكريم على المؤمنين.

تتمثل كبرى مظاهر التأثير القرآني على المؤمنين فيما أحدثه من طفرة إصلاحية، ما عهدتها البشرية في تاريخها الطويل، وما كان لها أن تتحقق لولا النشأة الإيمانية لهؤلاء المؤمنين، يقول الزرقاني: «إن الإصلاح العام الذي جاء به القرآن والانقلابَ العالمي الذي تركه هذا الكتاب ما حدث، ولم يكن ليحدث في أي عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه، إلا على أساسٍ من الإيمان العميق القائم على وجدان قويٍّ»(١).

هذه النشأة الإيمانية تتجلى في إحياء القلوب بالإيمان بربهم، ثم تعميق هذا الإيمان فيها، ثم يتحول إلى مهابة لله ورغبة فيما عنده، ثم إلى حركة تتفاعل مع الكون كله، وأزيد هذا الأمر بيانا، فأقول: تتمثل المظاهر الإيمانية في أمور أبرزها ما يلي:

المظهر الأول: أن القرآن الكريم حياة القلوب.

يتمثل هذا المظهر في أنَّ القرآن أحيا القلوب وأنار البصائر، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾(٢).

والمعنى: أوَ من كان كافرا فهديناه للإيمان وشرعنا له من الأحكام ما يهتدي بها في عالَم الأغيار، كمن هو كافر، يتخبط في ظلمات الكفر والجهل؟ لا يستويان.

---

(١) مناهل العرفان ٢/٣١٤.

(٢) سورة الأنعام، من الآية: ١٢٢.

فالآية الكريمة ناطقة بأن الإيمان بالله وما يستلزمه من التمسك بشِرْعته حياةٌ، وأن الكفرَ به موتٌ، يقول الطاهر ابن عاشور: «فإن الشرك يحول دون التمييز بين الحق والباطل، ويصرف صاحبه عن السعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف، فإذا هداه الله إلى الإسلام تغير حاله، فصار يميز بين الحق والباطل، ويعلم الصالح من الفاسد، فصار كالحي، وصار يسعى إلى ما فيه الصلاح، ويتنكب عن سبيل الفساد، فصار في نور يمشي به في الناس»(1).

وقد دلت الآية على هذا المعنى بأسلوب الاستفهام الإنكاري؛ لأنه من الوضوح بمكانة لا يلتبس على العقول إدراكه، يقول الشعراوي: «وهذا تساؤل جوابه: لا؛ أي: ليس كل منهما مساويا للآخر، مثلما نقول: هل يستوي الأعمى والبصير؟ والفطرة هنا تقول: لا، مثلما تؤكد الفطرة عدم استواء الظلمات والنور، أو الظل والحرور، وهنا يَأْمَنُنا الله على الجواب؛ لأنه -سبحانه- يعلم الأمر إذا طرح كسؤال وكاستفهام فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق أن يقوله خبراً»(2).

وهذا المعنى الذي قررته الآية الكريمة قد جاء في آيات كثيرة، قال الرازي: «قال أهل المعاني: قد وصف الكفار بأنهم أموات في قوله: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾(3)، وأيضا في قوله: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾(4)، وفي قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾(5)، وفي قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ (6)،

(1) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ج/8، ق/أ، صـ/ 45، ط: الدار التونسية- تونس.

(2) تفسير الشعراوي 7/3912.

(3) سورة النحل، الآية: 21.

(4) سورة يس، من الآية: 70.

(5) سورة النمل، من الآية: 80.

(6) سورة فاطر، الآية: 19.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾(١)، فلمَّا جعل الكفر موتا والكافر ميتا، جعل الهدى حياة والمهتدي حيا.

وإنما جعل الكفر موتا؛ لأنه جهل، والجهل يوجب الحيرة والوقفة، فهو كالموت الذي يوجب السكون، وأيضا الميت لا يهتدي إلى شيء والجاهل كذلك، والهدى علم وبصر، والعلم والبصر سبب لحصول الرشد والفوز بالنجاة»(٢).

ونحو الآية السابقة قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٣).

ومعنى قوله: "إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ"؛ أي: أجيبوه إلى ما يدعوكم إليه من التمسك بالقرآن.

فالمراد بـ"لِمَا يُحْيِيكُمْ" القرآن؛ إذ فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة؛ وهو المروي عن قتادة(٤).

المظهر الثاني: طمأنينة القلوب.

فكما أن القرآن الكريم يحيي القلوب، ويرسم المنهج السديد، وينير الطريق، فإنه كذلك يحقق لها الأمن والأمان، والسكينة والاطمئنان، ألا ترى قول الحق تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾(٥).

﴿٢٨﴾﴾(٥).

---

(١) سورة فاطر، من الآية: ٢٢.

(٢) التفسير الكبير ١٣/١٨٠.

(٣) سورة الأنفال، من الآية: ٢٤.

(٤) الأثر: أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/٤٦٤، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٦/١٦٨٠، ط: نزار مصطفى الباز، الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م).

(٥) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

فالمراد بـ"ذِكۡرِ ٱللَّهِ" -على الأرجح(١)- هو القرآن الكريم؛ فإنه أعظم آية تطمئن لها القلوب، ولأنه الأنسب لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ ﴾(٢)؛ أي: هؤلاء الكفار ينكرون كونه آية، والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم(٣).

وأيضا فإن إطلاق الذكر على القرآن الكريم شائع، من ذلك: قولُه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾(٤)، وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾(٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾(٦)، وقول جل وعلا: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ ﴾(٧).

---

(١) ومما قيل في المراد بـ"ذِكۡرِ ٱللَّهِ"؛ أي: ذكره باللسان. وقيل: ذكر آلائه الدالة على وحدانيته. وقيل: وعده؛ فإنهم إذا ذكروا وعيد الله ولم يأمنوا من الوقوع في المعاصي، خافوا ووجلوا، فإذا ذكروا وعده اطمأنوا (النكت والعيون للماوردي ١١٠/٣، ط: دار الكتب العلمية، ومؤسسة الكتب الثقافية- بيروت، والكشاف للزمخشري ٣٥١/٣، ط: العبيكان، الأولى، سنة: ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، والتفسير الكبير ٥٠/١٩).

(٢) سورة الرعد، من الآية: ٢٧.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢٢٢/٣، ط: مكتبة الرياض الحديثة- الرياض، وعناية القاضي وكفاية الراضي لشهاب الدين الخفاجي ٢٣٨/٥، ط: دار صادر- بيروت، ومحاسن التأويل لجمال الدين القاسمي ٣٦٧٧/٩، ط: دار إحياء الكتب العربية- القاهر، الأولى، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م، والتحرير والتنوير ١٣٧/١٣.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٦.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٦) سورة النحل، من الآية: ٤٤.

(٧) سورة ص، من الآية: ٨.

والتعبير بصيغة المضارع "تَطۡمَئِنُّ" في الآية الكريمة لإفادة التجدد والاستمرار، فالقرآن الكريم هو مصدرُ الطمأنينة الذي لا ينقطع، ومعينُه الذي لا ينضب، فلا يزال مصدرا لها، تنبع منه يوما بعد يوم، إلى أن تقوم الساعة.

وافتتاحُ الجملة بأداة التنبيه "أَلَا" للاهتمام بمضمونها والإغراء بوعيها، وتقديمُ الجار والمجرور "بِذِكۡرِ ٱللَّهِ" على متعلَّقِه "تَطۡمَئِنُّ" لإفادة الحصر[(١)].

فالقرآن هو وحده مصدر الطمأنينة؛ لما يقدمه للإنسان من حقائق تتعلق بمبدأ نشأته، ومنتهى أمره، وما يتعلق بحياته ما بين نشأتها إلى منتهاها؛ حيث يغرس في القلوب من أنَّ الأمورَ تجري بمقادير الله تعالى؛ فلا يبالي المؤمن بشيء يصيبه من كوارث الدنيا، ولا يحرص على نعمة وُهِبها، فلا يعرف القلق أو الفزع أو الحرص إليه سبيلا؛ وذلك هو المراد بالحياة الطيبة في قوله جل شأنه: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾[(٢)]، فالحياة الطيبة هي الحياة الراضية الصابرة القانعة الشاكرة؛ وهو حاصل ما ذكره الفخر الرازي[(٣)].

المظهر الثالث: الروعة والجلالة.

فالقرآن الكريم يثير في نفوس المؤمنين روعة ورهبة تبعث على الامتثال لما شرع لهم من منهج فيه النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾[(٤)].

فقد اشتملت الآية على ثلاث خصائص للقرآن الكريم:

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٢٢/٣، والتحرير والتنوير ١٣٨/١٣.

(٢) سورة النحل، من الآية: ٩٧.

(٣) التفسير الكبير ١١٥/٢٠، وزهرة التفاسير لمحمد أبي زهرة ٤٢٦٥/٨، ط: دار الفكر العربي.

(٤) سورة الزمر، من الآية: ٢٣.

الأولى: كونه أحسن الحديث؛ حيث اشتمل على أفضل ما تشتمل عليه الأخبار من المعاني النافعة والجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والتنبيه على عظم العوالم والكائنات، وعجائب تكوين الإنسان، والعقل، وبث الآداب، واستدعاء العقول للنظر والاستدلال، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه، ومن كونه مصدقا لما تقدمه من كتب الله ومهيمنا عليها(١).

الثانية: كونه متشابها؛ أي: يشبه بعضه بعضا في فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، وصدق أخباره، ووثاقة براهينه، فلا اختلاف فيه ولا تناقض، مع كونه نزل في أزمان متباعدة، وأحوال متباينة، مع تعدد موضوعاته وتنوعها حتى شملت كل ما للإنسان به علاقة في أمر دنياه وأخراه.

الثالثة: كونه مثاني، والمثاني جمع مُثَنَّى على غير قياس، أو مَثْنى، وهو من التثنية بمعنى التكرير، قال الطاهر ابن عاشور: «كُنِّي عن معنى التكرير بمادة التثنية ؛ لأن التثنية أول مراتب التكرير»(٢)

ووجه وصف القرآن الكريم به أنه ثنيت فيه معانيه وأغراضه ترسيخا لها في النفوس.

أو أنه يثنى في التلاوة، فلا يخلق على كثرة ترداده؛ أي: لا يزول رونقه ولذة قراءته من كثرة ترداده .

أو أنه يثنى على مرور الأوقات ويكرّر فلا يدرس ولا ينقطع دروسَ سائر الأشياء التي تضمحل وتبطل على مرور الأيام.

أو أنه لما يُثنى ويتجدّد حالا فحالا من فوائده، كما روي في الخبر في صفته: «**لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوجّ فيقوّم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردِّ**»(٣)(١).

---

(١) التحرير والتنوير ٣٨٥/٢٣.

(٢) التحرير والتنوير ٣٨٦/٢٣.

(٣) سبق تخريجه صـ١٧.

وذكر الراغب والأصفهاني وجها آخر، وهو جواز أن تكون من الثناء؛ تنبيها على أنه يثنى فيه على الله –تعالى– كما أن فيه ما يدعو إلى الثناء على من يتلوه، ويعلمه ويعمل به، وعلى هذا الوجه وصفه بالكرم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾(٢)، وبالمجد في قوله: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾﴾(٣)(٤).

وفي افتتاح الآية بلفظ الجلالة "ٱللَّهُ" المستجمع لصفات الجلال والإكرام إيذان بتفخيم شأن المنزَّل؛ إذ عظمة المنزَّل مستتبعةٌ لعظمة المنزِّل، واستدلال على أحسنيته، مع ما في ذلك التركيب من القصر والحصر.

وقوله: "تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ" هو بمثابة النتيجة المترتبة على ما امتاز به من خصائص، يقول إسماعيل حقي: «"تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ " استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه بعد بيان أوصافه في نفسه وتقرير كونه أحسنَ الحديث»(٥).

والمعنى: أنه إذا تلي على الذين يخشون ربهم علت جلودَهم قُشَعْريرة، وهي تغيُّر يحدُث في جلد الإنسان فرقا مما فيه من عذاب، ثم تلين جلودهم وقلوبهم، لما يرجونه من فضل الله ورحمته.

يقول ابن كثير: «هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، " ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ" لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه:

(١) النكت والعيون للماوردي ١٢٢/٥، والمفردات في غريب القرآن ١٠٧/١، وروح البيان لإسماعيل حقي ٩٨/٨، ط: در سعادت.

(٢) سورة الواقعة، آية: ٧٧.

(٣) سورة البروج، آية: ٢١.

(٤) المفردات في غريب القرآن ١٠٧/١.

(٥) روح البيان ٩٨/٨،٩٩.

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات لأبيات، من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾[2]؛ أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم؛ أي: يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعا له.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة ﷺ عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المعلى في الدنيا والآخرة»[3].

فالقرآن الكريم يبعث في قلوب المؤمنين –بما له من خصائص– رهبة ورغبة يحثهم على امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

المظهر الرابع: زيادة الإيمان.

لم يكن تأثير القرآن الكريم على المؤمنين –بما سبق تعداده– ليفتر يوما أو يزبل، ولكنه تأثير يتجدد يوما بعد يوما، كلما نظروا فيه متدبرين، أو استمعوا

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٢:٤.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٧٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٩٤/٧، دار طيبة، الثانية، سنة: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

إليه منصتين، فهو الكتاب السماوي الوحيد الذي لا يخلق على كثرة الرد، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾.

يقول رشيد رضا مبينا معنى قوله تعالى: "وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا"؛ أي: «إذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ زادتهم إيمانا؛ أي: يقينا في الإذعان، وقوة في الاطمئنان، وسعة في العرفان، ونشاطا في الأعمال.

ويطلق الإيمان في عرف الشرع على مجموع العلم، والاعتقاد والعمل بموجبه، وعلى كل منهما، والقرائن تعين المراد»[1].

ونحو هذه الآية قوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[2].

والتعبير بـ"إِذَا" الشرطة –في الآيتين– لإفادة تحقق زيادة الإيمان كلما تليت عليهم آية من القرآن الكريم، وكثرته. وكذلك التعبير بـ"أَمَّا" –في الآية الثانية– لإفادة التوكيد

وكلما زاد الإيمان بالله في القلب، ظهر أثره جليا في الأخلاق والسلوك، فتصبغ الحياة حينئذ بصبغة الإيمان، حتى يخيل للناظر أن هذا الإيمان وطن تبوأه المؤمنون، قال تعالى –في وصف الأنصار–: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[3].

(١) تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا ٥٩٠/٩، ط: دار المنار، الثانية، سنة: ١٣٦٧هـ.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة الحشر، من الآية: ٩.

وهنا تثار مسألة، وهي مسألة زيادة الإيمان ونقصه، وقد تضافرت الآيات القرآنية على أن الإيمان يزيد، من ذلك قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[١].

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾[٣].

هذه المظاهر -وهي غيض من فيض وقليل من كثير- قادتهم إلى الاستمساك به واتباع تعاليمه حتى انعكس على واقع الحياة بما غيَّرها في أقصر زمن ممكن.

ثانياً: مظاهر تأثير القرآن الكريم على الكافرين

تتعدد مظاهر تأثير القرآن الكريم على الكافرين التي سجلها عليهم القرآن، ومن هذه المظاهر ما يلي:

الأول: أنهم كانوا يتلذذون بالاستماع له، مشعرين بقوة جاذبة إليه، لا يستطيعون دفعها، حتى كانوا يسترقون السمع منصتين له[٤]، وفي ذلك إقرار بما له من قوة تأثير في نفوسهم، تقودهم إلى الإيمان به لو أنهم خلو بين فطرتهم وبينه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الفتح، من الآية: ٤.

(٤) يراجع صـ١٧.

ولأجل أن يحولوا بين الناس وبين الإيمان به، أمر بعضهم بعضا أن يلغوا فيه إذ يستمعون إليه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾(١).

يقول الشعراوي: «نجد الكفار –مثلاً– حين نزل القرآن والعرب أمة بلاغة وأمة بيان؛ عرفوا أنه لو سمع الناس القرآن لأحسوا بإعجازه وبلاغته وحلاوته ولآمنوا به، ولذلك يقول الحق –سبحانه وتعالى– على ألسنتهم في القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ لأن الكفار يعرفون أن الناس لو استمعوا للقرآن لآمنوا به، ولذلك فهم ينهونهم عن السماع، وإن قرأ أحد القرآن يأمرون بعضُهم البعض باللغو فيه حتى لا يفهم شيئا، وهذه شهادة من الكفار بأن الآذان لو استقبلت القرآن لآمنت»(٢).

فدل ذلك على قوة تأثير القرآن الكريم فيهم حتى لجأوا إلى أساليب العاجز المقهور، وهو لغيهم فيه؛ لئلا يتأثروا به، فيقودهم إلى ما لا يرغبون من ترك ما ألفوه، والخروج عما عهدوه.

لقد تمادى الكافرون في هذا اللغو، حتى رانت على قلوبهم الحجبُ، فلم تنفذ إليها أنوار القرآن، فأعرضوا عنه ونفروا، وذلك هو الأثر الثاني من مظاهر تأثير القرآن الكريم عليهم.

الثاني: أنهم كانوا ينفرون عن القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾﴾(٣).

والمعنى: أن الله –تعالى– قد بيَّن في القرآن الكريم الحقَّ بشتى صور البيان، فتارة بالقصص، وأخرى بضرب الأمثال، وأحيانا بأسلوب الإخبار وأخرى بأسلوب الاستفهام.... رجاء أن يعتبروا ويتعظوا، وأمام هذا البيان الذي تعددت

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٢) تفسير الشعراوي ٤٩٠٧/٨.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤١.

أساليبه وتنوعت ضروبه ما ازداد الكافرون إلا إعراضا عنه؛ وذلك لأن نفوسهم لم يكن لديها استعداد للهدى، فقد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل أبصارهم غشاوةً.

تلك النفرة قد دفعتهم إلى أن يطلبوا من النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات مادية تعنتاً منهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾(١).

وقد بين الحق –تعالى– الحكمة من عدم تلبية مطالبهم فقال جل شأنه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾(٢).

وقال جل شأنه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾(٣).

الثالث: التجهم والعبوس من قراءة القرآن، والسطو والبطش بالقارئين.

لا شك أن المشركين يتقلبون في صراع بين قناعتهم بصدق دعوة القرآن الكريم؛ لوقوعه من أنفسهم موقع التأثير والجذب، وبين أهوائهم الضالة، فحينما تصل إلى أسماعهم آيات القرآن تملكتهم حالة من الغيظ والغضب –لغلبة أهوائهم– تظهر في وجوههم، يكادون يترجمونه إلى سطو وبطش بمن يتلون

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٠:٩٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠١.

عليهم آيات الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾(١).

فالمراد بالآيات القرآن الكريم؛ لقوله: "تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ"، وقد وصفت بالـ"بَيِّنَٰتٍ" تشنيعا لحالهم وإنكارا عليهم؛ إذ لا عذر لهم فيما بدا منهم من غضب، وهمُّوا به من سطوٍ(٢).

* * *

(١) سورة الحج، من الآية: ٧٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٧/٣٣٥.

المبحث الثاني

مظاهر التأثير القرآني على الجن

الجن خلقهم الله تعالى –قبل خلق آدم عليه السلام– من نار، قال تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، وقال جل وعلا: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾[2].

وقد خلقهم –تعالى– لما خلق له الإنسَ، وهي عبادته وحده، قال جل شأنه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[3].

هذه العبودية لا تتحقق إلا بمنهج شرعه لهم على ألسنة رسله إليهم، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ ﴾[4].

فهم مكلَّفون بما شُرع لهم من منهج، إلا أنهم ليسو مماثلين للإنس في جميع التكاليف، لأنهم ليسوا مماثلين لهم في أصل الخلقة، فكلٌّ مكلف بما يتلاءم مع طبيعته.

يقول ابن تيمية: «فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم، فإنهم ليسوا مماثلي الإنس في الحد والحقيقة، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساويا لما على الإنس في الحد، لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي والتحليل والتحريم؛ وهذا ما لم أعلم فيه نزاعا بين المسلمين»[5].

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الجن، الآية: ١٥.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٤) سورة الأنعام، من الآية: ١٣٠.

(٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/٢٣٣، ط: مجمع الملك فهد– المدينة المنورة، سنة: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

فمن عصى فهو من أهل النار، ولا خلاف بين العلماء في ذلك، قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨)﴾[١].

ومن أطاع، فالظاهر أنه من أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾[٢]، فالخطاب للإنس والجن؛ وهو المروي عن الحسن البصري والضحاك ومالك بن أنس وابن أبي ليلى وغيرهم، وصححه النووي[٣].

وقد اختلف العلماء: هل منهم رسل، أو أن الرسل من الإنس رسل إليهم أيضا؟

فظاهر قوله تعالى: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ" أن منهم رسلاً؛ وهو المروي عن الضحاك ومقاتل وأبي سليمان، واستظهره الماوردي وابن الجوزي[٤].

وقال السيوطي: جمهور العلماء سلفا وخلفا على أنه لم يكن من الجن قط رسول ولا نبي؛ كذا روي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– ومجاهد والكلبي وأبي عبيد[٥]، وبناءً على هذا الرأي فلا يكون الجمع في قوله: "رُسُلٌ مِّنكُمْ"

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦٩/٤، ط: المطبعة المصرية– القاهرة، الأولى، سنة: ١٣٤٧هـ، ١٩٢٣م.

(٤) النكت والعيون للماوردي ١٧٠/٢، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٢٥/٣، ط: المكتب الإسلامي.

(٥) لوامع الأنوار البهية لشرح الدرة المضية لأبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ٢٢٣/٢، ط: مؤسسة الخافقين– دمشق، الثانية، سنة: ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

مانعا من أن يكون الرسل من أحد الفريقين كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾[1]، وإنما هو خارج من أحدهما[2].

قال أبو العون السفاريني: «وتحقيق ذلك والبحث فيه مما لا فائدة فيه لعدم ترتب شيء عليه، غير أنّا نقطع بأنهم سمعوا ببعثة رسل الإنس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾[3]، وظاهر هذا أنهم كانوا مؤمنين بشريعة موسى عليه السلام»[4].

ومحلُّ اختلاف العلماء في غير بعثة النبيِّ محمد ﷺ، فقد أجمعوا على أنه ﷺ بُعِثَ إلى الثقلين الإنس والجن، فهم مكلفون بأصول شريعته ﷺ وفروعها، وأنهم مخاطبون بالقرآن الكريم، وقد تحداهم الله –تعالى– به كما تحدى الإنس أن يأتوا بمثله، وقد عجزوا عن ذلك، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[5].

وقد ثبت أنَّ الجنّ استمع القرآنَ من النبيِّ ﷺ مرتين، وفي كل مرة ظهر أثر القرآن فيهم واضحا، قال أبو المظفر السمعاني: «قال جماعة من أهل التفسير: إن أمر الجن كان مرتين، مرة بمكة ومرة ببطن نخلة»[6].

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣٥٤/١، ط: عالم الكتب- بيروت، الثالثة، سنة: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٩٢/٢، ط: عالم الكتب- بيروت، الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

(٣) سورة الأحقاف، من الآية: ٣٠.

(٤) لوامع الأنوار البهية ٢٢٤/٢.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٦) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني ٦٣/٦، ، دار الوطن، الرياض.

المرة الأولى: وهي ما رواها ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهُبُ، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تِهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلةَ عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم، وقالوا: يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾[١]، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[٢]. وإنما أوحي إليه قول الجن»[٣].

قال الإمام البيهقي: «وهذا الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة النبي ﷺ وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم»[٤].

وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الحادثة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩

---

(١) سورة الجن، من الآيتين: ١،٢.

(٢) سورة الجن، من الآية: ١.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه ٢٥٠/١، كتاب: الأذان، باب: الجهر بقراءة صلاة الفجر، ح(٧٧٣)، ومسلم في صحيحه صـ٢٣٥، كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، ح(٤٤٩)، واللفظ للبخاري.

(٤) دلائل النبوة للإمام أبي بكر البيهقي ٢٢٧/٢، ط: دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث، الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾[1].

وقد استمع هؤلاء النفرُ سورة العلق؛ كما روي عن عكرمة، وقيل: سورة الرحمن[2]؛ وهو ضعيف.

وظهر أثر القرآن الكريم عليهم إذ استمعوا إليه في أربعة أمور:

الأول: أنهم حين حضروا النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، نادى بعضهم بعضا: أن "أَنصِتُواْ"، فقد طرق هذا المقروء أسماعهم، ومس قلوبهم، وتجاوب مع فطرتهم، فظلوا منصتين وقد امتلكهم الخشوع والروعة، وما أن فرغ رسول الله ﷺ من تلاوته حتى أيقنوا أن لا كلام -مما سمعوه من قبل- يماثله، وأنه لا قِبَل لأحد أن يأتي بمثله، فهو منزل من عند الله تعالى، وهو ما بشرت به التوراة من قبل، وأنه هو السر وراء هذا الحدث الجلل.

الثاني: أنهم سارعوا إلى الإيمان به بعد إيقانهم بإعجازه وبأنه ما بشر به موسى عليه السلام، يقول المازري: «إنهم آمنوا عند سماع القرآن، ولا بد لمن آمن عند سماعه أن يعلم حقيقة الإعجاز وشرائط المعجزة، وبعد ذلك يقع له العلم بصدق الرسول ﷺ، فإما أن يكون الجن علموا ذلك، أو علموا من كتب الرسل المتقدمة ما دلهم على أنه هو النبي الصادق المبشر به»[3].

---

(١) سورة الأحقاف، الآيات: ٣٢:٢٩.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٣٤٠/٨، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٣هـ،١٩٩٣م، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ٤٦٣/٢٠، ط: دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.

(٣) المعلم بفوائد مسلم لأبي عبد الله محمد بن على المازري ٤٠١/١، ط: الدار التونسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الثانية، سنة: ١٩٨٨م.

الثالث: أنهم انطلقوا إلى قومهم داعين إياهم إلى الاستجابة له والإيمان به، مبشرين إياهم ومنذرين "يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ".

يقول الشهيد سيد قطب: «فإن هذه الآيات .... تنبئ عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن مفاجأة أطارت تماسكهم، وزلزلت قلوبهم، وهزت مشاعرهم، وأطلقت في كيانهم دفعة عنيفة من التأثر، امتلأ بها كيانهم كله وفاض، فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعا، ولا تملك عليه صبرا، قبل أن تفيضه على الآخرين في هذا الأسلوب المتدفق، النابض بالحرارة والانفعال، وبالجد والاحتفال في نفس الأوان، وهي حالة من يفاجأ أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه، وتخلخل تماسكه، وتدفعه دفعا إلى نقل ما يحسه إلى نفوس الآخرين في حماسة واندفاع»(١).

الرابع: أنهم وصفوا لهم ما سمعوا من القرآن بما حكاه الله -تعالى- عنهم بقوله: "إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا"؛ إذ الراجح أن ما جاء في سورتي الجن والأحقاف تعبير عن تلك القصة التي رواها ابن عباس رضي الله عنهما(٢).

وفي هذا الوصف الدقيق ما يشير إلى أن القرآن الكريم قد بلغ تأثيره في نفوسهم من أوَّل وهلة مبلغا عرفوا به حقيقته.

فمعنى قولهم: " قُرْءَانًا"؛ أي: كتابا جامعا للحقائق الإلهية والكونية والمواعظ وجميع ما يحتاج إليه في أمر الدارين(٣)، وهو وصف للكتاب كله دون

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٧٢٦،٣٧٢٧، بتصرف يسير.

(٢) البحر المحيط ٨/٣٤٠، وفي ظلال القرآن ٦/٣٢٧٢.

(٣) تبصير الرحمن وتيسير المنان للشيخ علي المهايمي ٢/٣٦٩، ط: مطبعة بولاق- القاهرة.

المقروء منه فقط(١)، وأفاد التنوين التفخيم؛ أي: مقروءا جليل الشأن، عظيم القدر؛ لكونه خارجا عن مألوف كلامنا أو كلام سمعناه من قبل، ووصْفُه بالمصدر "عَجَبًا" للمبالغة في التعظيم؛ أي: عجيبا، والشيء العجيب: ما خرج عن حد نظائره، فقد خرج القرآن عن مألوف غيره من الكتب السماوية فضلا عن كلام الناس؛ وذلك لفصاحة كلامه، وحسن مبانيه، ودقة معانيه، وغرابة أسلوبه ومواعظه، حتى صار كأنه نفس العجب(٢).

وقولهم: "يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ" تجسيد لحقيقة القرآن الكريم؛ أي: يبين الحق والصواب بيانا شافيا بحيث لا يلتبس على أحدٍ.

المرة الثانية: وهي ما رواها عبد الله بن مسعود ﷺ، فعن علقمة ﷺ أنه قال: أنا سألتُ ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ذات ليلة، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء. قال: فقلنا يا رسول الله، فقدناك، فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم.

فقال: «**أَتَانِي دَاعِي الجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِم الْقُرْآنَ**» قال: فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: «**لَكُم كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ**» فقال رسول الله ﷺ: «**فَلَا تَسْتَنْجُوا بهما؛ فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُم**»(٣).

---

(١) عناية القاضي وكفاية الراضي لشهاب الدين الخفاجي ٨/٢٥٥، وروح المعاني للألوسي ٢٩/٨٣، ط: دار إحياء التراث العربي– بيروت.

(٢) البحر المحيط ٨/٣٤٠، ونظم الدرر ٢٠/٤٦٤،٤٦٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه صـ٢٣٦، كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، ح(٤٥٠).

قال البيهقي: «ثم بعد ذلك (أي: بعد أن سمعت الجن قراءة النبي ﷺ وعلمت حاله) أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله -عز وجل- كما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ»[(١)].

قال ابن حجر: «إن الذين جاؤوا أولا كان سبب مجيئهم ما ذكر في الحديث من إرسال الشهب، وسبب مجيء الذين في قصة بن مسعود أنهم جاؤوا لقصد الإسلام وسماع القرآن والسؤال عن أحكام الدين»[(٢)].

وقد قرأ عليهم رسول الله ﷺ تلك الليلة سورةَ الرحمن، فعن جابر ﷺ أنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «**لقد قَرَأْتُها على الجِنِّ لَيلَةَ الجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا منكُم، كُنتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾[(٣)]، قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِك رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمْدُ**»[(٤)].

---

(١) دلائل النبوة ٢٢٧/٢، بتصرف.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٦٧٤/٨، ط: المكتبة السلفية.

(٣) سورة الرحمن.

(٤) حسن: أخرجه الترمذي في سننه ٣٩٩/٥، كتاب: التفسير، باب: ومن سورة الرحمن، ح(٣٢٩١)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد»، قال ابن حنبل: «كأن زهير بن محمد الذي وقع بالشام ليس هو الذي يروى عنه بالعراق، كأنه رجل آخر قلبوا اسمه، يعني: لما يروون عنه من المناكير»

وأخرجه من هذا الطريق الحاكم في المستدرك ٤٧٣/٢، كتاب: التفسير، تفسير سورة الرحمن، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص.

قال عبد الرحمن المباركفوري: «قلت: حديث جابر هذا رواه الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد وهو من أهل الشام؛ ففي الحديث ضعف، لكن له شاهدا من حديث ابن عمر؛ أخرجه بن جرير والبزار والدارقطني في الأفراد وغيرهم. وصحح السيوطي إسناده؛ كما في فتح البيان» (تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للمباركفوري ١٧٩/٩، ط: دار الفكر)

ولم يشر لنا القرآن الكريم ما له من أثر عليهم، وإنما ظهر ذلك في إخبار النبي ﷺ عنهم أنه كلما أتى في قراءته على قوله: "فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ"، أقروا بنعمة الله وحمدوه عليها.

* * *

المبحث الثالث

مظاهر التأثير القرآني على الجمادات

قبل أن أستفيض في الحديث على مظاهر تأثير القرآن الكريم على الجمادات ينبغي التنبيه إلى أمرين:

الأول: أن للجمادات إدراكاً، ركبه فيها الخالق جلت قدرته، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾[1].

فقد أثبت الحق –تعالى– للسماوات والأرض وجميع مَنْ فِيهنَّ التسبيحَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾[2].

فمعنى قوله: "يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ"؛ أي: رجعي معه التسبيح، ومعنى تسبيح الجبال: أنَّ الله يخلق فيها تسبيحاً، فيسمَع منها كما يسمع من المسبِّح؛ معجزةً لداود عليه السلام[3].

وقوله جلت حكمته: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾[4].

وقوله عز شأنه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾﴾[5]. فقد أخبر الحق –تبارك وتعالى– بسجود هذه المخلوقات له، مما يدل على انقيادها لإرادته وامتثالها لأمره، فنؤمن بما أخبر، ونفوض كيفية هذا السجود لعلمه.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) سورة سبأ، من الآية: ١٠.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي ٣/٥٥، ط: دار الكلم الطيب– بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

(٤) سورة الحج، من الآية: ١٨.

(٥) سورة الرحمن، الآية: ٦.

وقوله جل وعلا: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾(١).

وقوله جل شأنه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾(٢). فقد أثبت الحقُّ –جل وعلا– للجبال الخشيةَ.

والتحقيق: أن نسبة التسبيح والسجود والخشية وغيرها إلى الجمادات نسبةٌ حقيقيةٌ، لكن ذلك يقع بكيفية تختلف عما عليه الإنسان للاختلاف بين الطبيعتين: طبيعة الإنسان وطبيعة الجمادات، فدل على أن للجمادات إدراكا، به يتحقق تسبيحها وسجودها وخشيتها(٣).

يقول أبو المظفر السمعاني: «عند أهل السّنة أن لله –تعالى– فِي الموَات والجمادات علماً لا يقف عليه الناس، وَقد قَالَ فِي مَوضِع آخر: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ (٤) وَهُوَ دَلِيل على مَا ذكرنَا من قبل»(٥).

ويقول ابن كثير: «وقد زعم بعضهم أنَّ هذا من باب المجاز؛ وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة، كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾(٦).

قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا؛ فإنَّ الله –تعالى– يخلق فيها هذه الصفة، كما في قولِه تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾(٧) الآية.

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٧٤.

(٢) سورة الحشر، من الآية: ٢١.

(٣) ينظر: التسهيل لتأويل التنزيل (تفسير جزء قد سمع) لأبي عبد الله مصطفى بن العدوي صـ٦٥،٦٦، ط: مكتبة مكة– طنطا، الأولى.

(٤) سورة الإسراء، من الآية: ٤٤.

(٥) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني ٤٠٨/٥.

(٦) سورة الكهف، من الآية: ٧٧.

(٧) سورة الأحزاب، من الآية: ٧٢.

وقال: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾(١)، و﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ ﴾(٢) الآية، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾(٣)، ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ الآية، ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ﴾(٤) الآية.

وفي الصحيح: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّه**»(٥)، وكحنين الجذع المتواترِ خَبَرُه، وفي صحيح مسلم: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُه الآنَ**»(٦). وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة(٧)، وغير ذلك مما في معناه»(٨).

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦.

(٢) سورة النحل، من الآية: ٤٨.

(٣) سورة فصلت، من الآية: ١١.

(٤) سورة فصلت، من الآية: ٢١.

(٥) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه ١١١/٣، كتاب: المغازي، باب: أحد يحبنا ونحبه، ح(٤٠٨٣)، ومسلم في صحيحه صـ٧١٠، كتاب: الحج، باب: فضل المدينة، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمها، ح(١٣٦٥).

(٦) صحيح مسلم صـ١٤٢٩، كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ح(٢٢٧٧).

(٧) حسن: أخرجه الترمذي في سننه ٢٨٥/٣، أبواب الحج، باب: ما جاء في الحجر الأسود، ح(٩٦١)، ولفظه: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «**واللهِ لَيَبْعَثَنَّه اللهُ يومَ القِيَامةِ له عَيْنَان يُبْصِرُ بهما، ولِسَانٌ يَنْطِقُ به، يَشْهَدُ على مَن اسْتَلَمَه بِحَقٍّ**» قال أبو عيسى: "هذا حديث حسن".

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، ح(٢٧٩٧)، وصححه العلامة أحمد شاكر (مسند الإمام أحمد ٢٤٨/٤، تحقيق: أحمد شاكر، ط: دار المعارف- مصر، الثانية، سنة: ١٤٠٤هـ).

(٨) تفسير ابن كثير ٣٠٥/١.

ويقول أبو حيان: «فلولا أنه –تعالى– أودع فيها قوة مميزة وصفة ناطقة وحركة اختيارية، لما صدر عنها شيء من ذلك ولا حسن وصفها به؛ وإلى هذا ذهب مجاهد وابن جريج وجماعة»[1].

الثاني: أنه من المسلَّماتِ أنَّ القرآنَ الكريمَ أنزل لهداية البشرية، فكانت عنايته بهداية الإنسان أكثر وأعمق من عنايته بما يتعلق بالأمور الكونية عامة[2]، وما جاء من الآياتِ تحمل صورا من تأثير القرآن عليها إنما جيء بها بها في معرض هداية الإنسان.

أمثلة لمظاهر تأثير القرآن في الجمادات.

فإذا تقرر الأمران السابقان، فقد ورد آيتان تشيران إلى مظاهر تأثر الجمادات بالقرآن الكريم:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾[3].

فالآية الكريمة بيانٌ لمَكانة القرآن التي تبوأها بين الكتب السماوية، والمعنى: لو أن كتابا سماويا سيرت بتلاوته الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، لكان هذا القرآن دون غيره من الكتب المنزلة، لما أَوْدع الله –تعالى– فيه من قوة التأثير، لكن ذلك لم يكن من شأن القرآن ولا من مهامه[4].

وكونه كذلك لا ينفي عنه تلك الخاصية التي بها أعجزت الثقلين عن معارضته، إذ الآية سيقت لبيان مكانة القرآن الكريم وما أودع من قوة التأثير التي أعجزت الثقلين أن يأتوا بمثل سورة منه ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا،

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٤٣٢/١.

(٢) الأسباب والمسببات –رسالة دكتوراه– للدكتور صبري منصور صيام ص٣٥٣،٣٥٤.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٤) تفسير ابن كثير ٤٦٠/٤، وزهرة التفاسير ٣٩٥٢/٨.

كما قال جل شأنه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾(١).

ولا يخفى ما في الآية الكريمة من الإشارة إلى ما انطوت عليه قلوب الكفرة من عناد وإصرار على التكذيب، ووسْمهم بنهاية ضلالتهم؛ إذ لم يهتدوا بهدي القرآن ودلائله، والحال لو أنَّ قرآنا أَمَرَ الجبالَ أن تسير، والأرضَ أن تتقطع، والموتى أن تتكلم، لكان هذا القرآن بالغا ذلك، ولكن ذلك ليس من شأن الكتب(٢)، كما قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ (٣).

يقول أبو السعود: «والمقصودُ إما بيانُ عِظم شأنِ القرآنِ العظيم وفساد رأي الكفرة، حيث لم يقدروا قدرَه العليَّ، ولم يعدّوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتي مُوسى وعيسى عليهما السَّلامُ، وإما بيانُ غلوهم في المكابرة والعِنادِ وتماديهم في الضلال والفساد»(٤).

ومعنى قوله: "بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا": ليس لي منه شيء، فهو القادر على الإتيان بما اقترحتموه من الآيات، إلا أنَّ الإرادة لم تتعلق بذلك؛ لأنه علم أنه لا ينجع فيكم شيء من ذلك لفرط عنادكم، فإذا رأيتموها قلتم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾(٥)(٦).

وقد اشتملت الآية على ثلاث صور من تأثير القرآن، وهي:

---

(١) سورة الحشر، من الآية: ٢١.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٤٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١١.

(٤) إرشاد العقل السليم ٣/٢٢٤.

(٥) سورة الحجر، من الآية: ١٥.

(٦) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة ٣/٢٣، ط: دار الكتب العلمية- بيروت.

تسيير الجبال؛ أي: قلعها عن أماكنها حتى ينفسح بين شعابها.

وتقطيع الأرض؛ أي: شقها حتى تنفجر منها العيون والأنهار كما فُعِل بالحجر الذي ضربه موسى ﷺ.

وتكليم الموتى، أي: إحياؤهم ثم تكليمهم، كما أحيى عيسى ﷺ الموتى.

وتلك المظاهر من عظائم الأمور، فإذا كان القرآن الكريم قد أُودع فيه من التأثير ما لو أسند إليه شيء من ذلك لتحقق، فهو لما دونها أشد تأثيراً.

والاقتصار عليها لكونا غاية ما يطرأ على العقل تصوره، ولموافقة ما ورد في مناسبة نزولها؛ فقد أخرج الواحدي عن الزبير بن العوام ﷺ قال: «قالت قريش للنبي ﷺ: تزعم أنك نبي يوحى إليك، وأن سليمان سُخِّر له الريح والجبال، وأن موسى سُخِّر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى؛ فادع الله -تعالى- أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلاَّ فادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلاَّ فادع الله -تعالى- أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهبا فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم، فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سُرِّيَ عنه قال: «**والذي نفسِي بيده لقد أَعْطَاني ما سأَلْتُم، ولو شِئْتُ لكان، ولكنَّه خيَّرنِي بين أن تدخلُوا من بابِ الرَّحْمَة فيؤمنَ مؤْمِنُكم، وبين أن يَكِلَكم إلى ما اخترتُم لأنفُسِكم فتضلوا عن بابِ الرحْمَةِ، ولا يؤمنَ مؤمنكم فاخترتُ بابَ الرحمة وأنْ يؤمنَ مؤمنُكم، وأَخْبرني إنْ أَعْطَاكم ذلك، ثم كفرْتُم أنه معذِّبُكم عذابا لا يُعَذِّبُه أحدا من العالمين**»؛ فنزلت: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ ﴾[1] حتى قرأ ثلاث آيات، ونزلت: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ ﴾ .... الآية»[2].

---

(١) سورة الإسراء، من الآية: ٥٩.

(٢) ضعيف: أخرجه الواحدي في أسباب النزول، عن طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي، وهو ضعيف، وأخرجه أبو يعلى في مسنده، ح(٦٧٩) من طريقه أيضا، (أسباب النزول

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (١).

فالآية الكريمة بيان لعظمة القرآن وعلوِّ قدره، فإنه لو أنزل على جبل – وهو في غلظته وقساوته– لخشع له وتصدع؛ لما أودع الله –تعالى– في القرآن من قوة التأثير.

فقد حملت الآية صورة من صور تأثير القرآن على الجبال، وهي تلك الحالة التي تأخذ الجبل من الخشوع والتصدع ما لو أنزل عليه وخوطب به، لكن الذي أنزل إليه به هم البشر وليس الحجر لما ركب فيهم من عقل وتمييزٍ، ومع ذلك لم تتأثر به قلوب هؤلاء تأثرا يقودهم إلى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والاعتبار بما فيه، ففيها توبيخ لمن لم يتأثر به ولم ينقد إليه.

وفيها أيضا امتنان على النبي ﷺ أن ثبَّته الله –تعالى– لما لا تثبتُ له الجبال على عظمتها وصلابتها؛ قاله الماوردي(٢).

* * *

للواحدي صـ٢٧٣،٢٧٤، ط: دار الإصلاح– الدمام، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ومسند أبي يعلى ٤٠/٢، ط: دار المأمون للتراث– دمشق، الطبعة الأولى، سنة: ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م).

وله شواهد:

فقد أخرج نحوه ابن أبي شيبة، كتاب: المغازي، في أذى قريش للنبيِّ ﷺ وما لقي منهم، ح(٣٧٥٥٧) عن الشعبي، (مصنف ابن أبي شيبةَ ٣٣٣/٧، ط: مكتبة الرشد، الأولى، سنة: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م).

وأخرج نحوه ابن جرير في تفسيره ٤٤٧/١٦، عن ابن عباس من طريق عطية العوفي.

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٢) النكت والعيون ٥١٢/٥.

الخاتمة

أولا: نتائج البحث:

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وبمنه تبارك الطيبات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه صلاة وسلاما لا ينقطعان أبدا، وعلى الآل والصحب أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

وبعد،،،

فما أروع أن يعيش المؤمن في كنف الله ومعيته، متدبرا كتابه، واقفا على طرف من أسراره، فقد عشت في رحاب هذا البحث المبارك عدة أشهر، أقلب صفحات أمهات المراجع، موصولة بجهود الباحثين في عصرنا، أجمع مسائله، وأقف على أبعاده، فكان أبرز ما توصلت إليه من نتائج ما يلي:

أولاً: أنَّ وجوه إعجاز القرآن تعددت لتتلاءم مع جميع الأجيال على تطور ثقافاتها، لئلا يكون لأحد على الله –تعالى– حجةٌ.

ثانيا: أنَّ تعدد وجوه إعجاز القرآن الكريم يقطع الطريق على المستشرقين تشكيكهم في ألوهية مصدر هذا الكتاب.

ثالثا: أنَّ أبرز وجوه إعجاز القرآن الكريم هو تأثيره الذي اتسع نطاقه ليشمل جميع الخلائق، وذلك لإحاطة علْم منزِّله –سبحانه– بحقائق الأشياء.

رابعاً: تتمثل عظمة وجه الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم أنه وسع المكلَّفين جميعاً، عالمهم وجاهلهم، عربيّهم وأعجميّهم، إنسهم وجنّهم.

خامساً: أن هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم كان له أبعد الأثر في استقبال البلاد المفتوحة –كالفرس والروم وغيرها– للدعوة الإسلامية، وتلك حجة دامغة لافتراءات المستشرقين في أن دخول هؤلاء في الإسلام كان بدافع التخلص من اضطهاد حكامهم، وليست رغبة في الإسلام.

سادساً: أنه لولا تأثير القرآن الكريم لما عرفت الحضارة الإنسانية طريقها إلى النور.

ولا يسعني في الختام إلا أن أتوجه إلى الله -تعالى- أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن يكتب له القبول والمثوبة وعمومَ النفع به، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات والديّ يوم القيامة،،،،، آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيراً

كتبه:

الراجي عفو ربه

صبري منصور عبد العزيز صيام

مدرس التفسير وعلوم القرآن الكريم بجامعة الأزهر

الاثنين الموافق: ٥ من ربيع الأول ١٤٣٥هـ

٧/ ١/ ٢٠١٤م.

ثانيا: ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، سنة: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م

٢- إرشاد العقل السليم لأبي السعود، ط: مكتبة الرياض الحديثة- الرياض.

٣- أسباب النزول للواحدي، ط: دار الإصلاح- الدمام، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٤- الأسباب والمسببات-رسالة دكتوراه- للدكتور صبري منصور صيام، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنيين بالقاهرة، جامعة الأزهر.

٥- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، سنة: ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٦- الإعجاز البياني للقرآن للدكتور عائشة عبد الرحمن، ط: دار المعارف- القاهرة، سنة: ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

٧- الإعجاز العددي للقرآن الكريم د.عبد الرزاق نوفل، ط: دار الكتاب العربي- بيروت، الخامسة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٨- إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط: دار عمان- الأردن، الأولى، سنة: ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٩- إعجاز القرآن الكريم لأبي بكر الباقلاني، ط: دار المعارف- القاهرة.

١٠- الأعلام للزركلي، ط: دار العلم للملايين، الخامسة عشر، سنة: ٢٠٠٢م.

١١- إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع لتقي الدين محمد بن علي المقريزي، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، سنة: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٢- البحر الزخار لأبي بكر أحمد بن عمرو البزار، ط: مؤسسة علوم القرآن- بيروت، ومكتبة جامع العلوم والحكم- المدينة المنورة، الأولى، سنة: ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨.

١٣- البحر المحيط لأبي حيان، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٣هـ،١٩٩٣م.

١٤- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، ط: دار الكتب العلمية- بيروت.

١٥- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، ط: دار إحياء الكتب العربية، الأولى، سنة: ١٣٧٦هـ،١٩٥٧م.

١٦- تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، سنة: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
١٧- تبصير الرحمن وتيسير المنان للشيخ علي المهايمي، ط: مطبعة بولاق- القاهرة.
١٨- التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، ط: الدار التونسية- تونس.
١٩- تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للمباركفوري، ط: دار الفكر.
٢٠- التسهيل لتأويل التنزيل لأبي عبد الله مصطفى بن العدوي، ط: مكتبة مكة- طنطا، الأولى.
٢١- التصوير الفني في القرآن، ط: دار الشروق، السادسة عشرة، سنة: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٢٢- تفسير الشعراوي، ط: أخبار اليوم.
٢٣- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ط: نزار مصطفى الباز، الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
٢٤- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار طيبة، الثانية، سنة: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
٢٥- تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني، دار الوطن، الرياض.
٢٦- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، ط: دار الفكر، الأولى، سنة: ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
٢٧- تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا، ط: دار المنار، الثانية، سنة: ١٣٦٧هـ.
٢٨- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، ط: دار المعارف بمصر، الثالثة.
٢٩- جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، سنة: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
٣٠- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ط: عالم الكتاب- الرياض.
٣١- دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدي، ط: دار الفكر- بيروت.
٣٢- دلائل النبوة للإمام أبي بكر البيهقي، ط: دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث، الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
٣٣- روح البيان لإسماعيل حقي، ط: در سعادت.
٣٤- روح المعاني للألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.
٣٥- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ط: المكتب الإسلامي.
٣٦- سنن الترمذي، ط: مصطفى البابي الحلبي- مصر، الثانية، سنة: ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

٣٧- سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن، ط: دار المغني- السعودية، الطبعة الأولى، سنة: ١٤١٢هـ، ٢٠٠٠م.
٣٨- السيرة النبوية لابن هشام، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.
٣٩- شرح النووي على صحيح مسلم لشرف الدين النووي، ط: المطبعة المصرية- القاهرة، الأولى، سنة: ١٣٤٧هـ، ١٩٢٣م.
٤٠- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، ط: دار الكتاب العربي، سنة: ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
٤١- الصحاح للجوهري، ط: دار العلم للملايين- بيروت، الرابعة سنة: ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٤٢- صحيح البخاري، ط: المكتبة السلفية- القاهرة، الأولى، سنة: ١٤٠٠هـ.
٤٣- صحيح مسلم، ط: دار المغني- السعودية، الأولى، سنة: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٤٤- الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، ط: دار الفكر المعاصر، دار الفكر- بيروت، سنة: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
٤٥- عناية القاضي وكفاية الراضي لشهاب الدين الخفاجي، ط: دار صادر- بيروت.
٤٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ط: المكتبة السلفية.
٤٧- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم، ط: مكتبة الخونجي، الأولى، سنة: ١٣٢٧هـ.
٤٨- في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب، ط: دار الشروق- القاهرة، الثانية والثلاثون، سنة: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
٤٩- الكشاف للزمخشري، ط: العبيكان، الأولى، سنة: ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م
٥٠- لوامع الأنوار البهية لشرح الدرة المضية لأبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، ط: مؤسسة الخافقين- دمشق، الثانية، سنة: ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
٥١- مباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم، ط: دار المسلم- الرياض، الثانية، سنة: ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٥٢- مجلة الجامعة الإسلامية- غزة، العدد الثاني، سنة: ٢٠٠٣م.
٥٣- مجلة جامعة دمشق، العدد الأول، سنة: ٢٠٠٢م.
٥٤- مجموع الفتاوى لابن تيمية، ط: مجمع الملك فهد- المدينة المنورة، سنة: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٥٥- محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي، ط: دار إحياء الكتب العربية- القاهر، الأولى، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.
٥٦- مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي، ط: دار الكلم الطيب- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٥٧- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم، ط: دار المعرفة-بيروت.
٥٨- مسند أبي يعلى، ط: دار المأمون للتراث- دمشق، الطبعة الأولى، سنة: ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
٥٩- مسند الإمام أحمد، تحقيق: أحمد شاكر، ط: دار المعارف- مصر، الثانية، سنة: ١٤٠٤هـ.
٦٠- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي، ط: مكتبة لبنان – بيروت.
٦١- مصنف ابن أبي شيبةَ، ط: مكتبة الرشد، الأولى، سنة: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
٦٢- معاني القرآن للفراء، ط: عالم الكتب- بيروت، الثالثة، سنة: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
٦٣- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ط: عالم الكتب- بيروت، الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
٦٤- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
٦٥- معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي، ط: أخبار اليوم.
٦٦- المعلم بفوائد مسلم لأبي عبد الله محمد بن على المازري، ط: الدار التونسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الثانية، سنة: ١٩٨٨م.
٦٧- مفتاح العلوم للسكاكي، ط: دار الكتب العلمية، سنة: ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٦٨- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز- الرياض.
٦٩- مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا للسيوطي، ط: مؤسسة الكتب الثقافية، ودار الجنان للنشر والتوزيع- بيروت، الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
٧٠- مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقاني، ط: دار الكتاب العربي- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
٧١- الموسوعة القرآنية المتخصصة، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- مصر، سنة: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٧٢- الندوة الثانية للإعجاز في القرآن الكريم، سنة: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.
٧٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.
٧٤- النكت والعيون للماوردي، ط: دار الكتب العلمية، ومؤسسة الكتب الثقافية- بيروت.

فهرس الموضوعات